

# الخلافة الإسلامية

بين الفكر و التاريخ

د. محمود اسماعيل

٢٠٠٦

مصر العربية للنشر والتوزيع

---

العنوان : الخلافة الإسلامية بين الفكر و التاريخ

المؤلف : د. محمود إسماعيل

الطبعة : الأولى ٢٠٠٦

الناشر : مصر العربية للنشر و التوزيع

١٩ شارع إسلام – حمامات القبة

القاهرة – جمهورية مصر العربية

تليفون و فاكس ٢٥٦٢٢٦٨

رقم الإيداع : ٢٠٠٥/١٥١٨٨

الترقيم الدولي : 977-5471-47-8

---

## مقدمة

موضوع "الخلافة" عند السنة، أو "الإمامة" عند فرق المعارضة - المرجئة والمعتزلة والخوارج والشيعة، من أهم الموضوعات التي شغلت المسلمين طوال تاريخهم، وحتى الآن، لأنه يتعلق بالحكم ونظمه ورسومه.

ولا غرو، فقد عرض له القدماء في الفقه والفرق و "الأحكام السلطانية" والفلسفة الإسلامية، فضلاً عن أدب السياسة والتاريخ. كما تناولوه المحدثون والمعاصرون، من الأكاديميين وشيوخ المؤسسات الدينية ومنظرو الأحزاب السياسية والمفكرين التقليديين والمؤرخين.

ومع ذلك ؛ تظل المسألة "ملتبسة"، والآراء حولها متعددة ومتناقضة، ويرجع ذلك لعدة أسباب، منها أن النصوص الدينية - القرآن والسنة - لم تقدم تصوراً محدداً وقاطعاً بصدد القضية، فالقرآن الكريم عرض لمبدأ عام هو "الشورى" وترك للمسلمين حرية اختيار النظام الأمثل في إطار هذا المبدأ، ولم يحدد نظاماً معينه للحكم. لذلك جرى "تأويل" آيات القرآن، وانتحال أحاديث نبوية لتبرير مشروعية التصورات والمفاهيم التي طرحها المتصارعون حول هذا النظام الأمثل، بحيث تدخلت "الإيديولوجيا" في صياغة هذا النظام الذي لم يكن مثالياً في غالب الأحيان.

منها أيضاً أن الفقهاء وكتاب الأحكام السلطانية كانوا ينتمون إلى فرق مختلفة ومتصارعة، يكفر بعضها بعضها الآخر، وتعتقد كل منها أنها "الفرقة الناجية" وما عداها "بدعة وضلالة". لذلك عبروا عن تيارات واتجاهات سياسية، تعبر بدورها عن أوضاع اقتصادية اجتماعية، حاولوا إكسابها مشروعية دينية. وإذا كانت كتب الأحكام السلطانية والفقهاء والفرق تبرر للواقع الراهن، فإن تصورات الفلاسفة والساسة عبرت عما يجب أن يكون.

لذلك كله - وغيره - وجد اتجاهان - قديماً وحديثاً - بصدد موضوع الخلافة أو الإمامة، أحدهما يرى فيها "خطة دينية" والآخر يعتبرها نظاماً زمنياً دينياً ليس إلا، لا علاقة له بالدين في قليل أو كثير. اعتبر أصحاب الاتجاه الأول مبحث الإمامة أو الخلافة مما يدخل في نطاق "علم أصول الدين"، بينما رأى فيها أصحاب الاتجاه الآخر مسألة فقهية، تتعلق بالفروع، وليس بالأصول.

من هنا كانت محاولتنا هذه لمقاربة القضية، بهدف القطع فيها من خلال رصد ما كتب حولها ونقده على المستوى النظري، ومقارنته بالواقع التاريخي العياني، باعتبار التاريخ يمثل المرجعية الواقعية، لا الإيديولوجيا "أو اليوتوبيا" المثاليين.



وقد تميز هذا العمل عن سابقه - في الدراسات الحديثة والمعاصرة - بتصديه لدراسة الموضوع عند فرق المعارضة، فضلاً عن المفهوم السنّي على المستوى الفكري النظري والتاريخي على السواء؛ الأمر الذي أفضى إلى توسيع دائرة البحث و الدرس؛ ومن ثم أعطى للأحكام موضوعيتها وحيدتها. ودون استباق لتقرير هذه الأحكام، ودون المصادرة على المطلوب؛ انتهت الدراسة إلى تركية الاتجاه القائل بأن الخلافة أو الإمامة نظام دنيوي فح لا علاقة له بالدين البتة، حيث لم تختص بخصائص مميزة عن غيرها من النظم، ولم تكن قط "نموذجاً" موحداً جرى تطبيقه في "دار الإسلام" على اتساع المكان، و امتداد الزمان. أخيراً، أترك هذا الحكم -الذي أتوقع أن يثير حواراً- إلى قراء الكتاب من الدارسين والمتخصصين، عساهم أن يجدوا في مباحثه براهين وأدلة وقرائن قاطعة على مصداقيته.

والله ولي التوفيق ،،،

محمود إسماعيل

المنصورة

٢٠٠٤/١١/٢٠



# المبحث الأول

مفهوم الخلافة  
في الفكر الديني المعاصر



تعاظم الجدل حول مسألة "الخلافة" قديماً وحديثاً، وصدق قول "الشهرستاني" بأن هذا الجدل كان يحسم بسفك الدماء، ومعلوم أن مشكلة الصراع حول الخلافة بدأت بعد وفاة الرسول "ص"، واستمرت حتى ألغاهما "كمال أتاتورك" عام ١٩٢٤م.

ومع ذلك احتدم الخلاف بين المفكرين السياسيين حول ما إذا كانت خطة "الخلافة" دينية أو زمنية، وما زال الخلاف محتدماً إلى الآن. فثمة اتجاه يرى أصحابه أنها تدخل في صميم الإسلام، ومن ثم فلا مناص من إحيائها باعتبارها بديلاً ناجعاً لكل النظم المتعارف عليها؛ تلك التي اعتبروها نظماً "كافرة". وثمة اتجاه آخر يرى أصحابه ضرورة الفصل بين الدين والسياسة، لا شيء إلا لأن نظام الخلافة الإسلامية ليس من الإسلام في شيء، بل هو نظام دنيوي قح أثبت التاريخ عقمه وعدم جدواه.

لذلك، عولنا على معالجة تلك الإشكالية، وذلك باختيار نماذج ثلاثة لكتابات مفكرين محدثين حاولوا التعبير عن فكر الاتجاه الأول، واختيار ثلاثة نماذج تمثل الاتجاه الثاني، وذلك بعرض أطروحاتهم ومناهجهم في برهناتها، ونقد تلك الأطروحات، بما يعبر عن موقفنا من الإشكالية المثارة.

بخصوص الاتجاه الأول، تبناه "السلفيون" رغم تنوع وتعدد تياراتهم، ومع ذلك فقد اتفقوا جميعاً على أن "الخلافة" تدخل في صميم

العقيدة الإسلامية، ومن ثم كان على المسلمين العمل على إحيائها؛ حتى يكتمل إيمانهم.

تمثلت مرجعية السلفيين في فكر "ابن تيمية" و"أبو الأعلى المودودي" المنظر لمفهوم "الحاكمية الإلهية" الذي تلقفته الحركات الأصولية المعاصرة واتخذته إيديولوجية تترر دعاويها في إحياء الخلافة الإسلامية، وإذ سبق لنا معالجة فكر ابن تيمية في مؤلف سابق<sup>(١)</sup>، نكتفي في هذا المقام بعرض لكتاب أبو الأعلى المودودي "الحكومة الإسلامية"؛ مع نقد أطروحته وتبيان ما انطوت عليه من صواب أو خطأ.

يرى المؤلف أن الإسلام ليس محض عبادات فقط، بل هو عقيدة وشريعة تنظم كل أمور الحياة<sup>(٢)</sup>؛ ومن هنا كان تكفيره لكافة النظم السائدة في العالم الإسلامي بعد انصرام عصر الخلفاء الراشدين وإلى اليوم؛ "إذ أصبح الإسلام ذيلاً تابعاً مسائراً لكل ضرب من الظلم السياسي والاقتصادي والاجتماعي"<sup>(٣)</sup>، لذلك دعا إلى إحياء شريعة الإسلام باعتبارها "أسلوب تفكير ووجهة نظر في الحياة بأجمعها"<sup>(٤)</sup>، تميزت عن سائر الديانات والشرائع.

كما اعتبر سائر الشرائع السائدة في زمنه نوعاً من "الجاهلية"<sup>(٥)</sup> يجب تقويضها. وتأسيساً على ذلك هاجم وندد بدعوى الوطنية والقومية الإثنية باعتبارها "كفراً". ومن ثم لا يكتمل إيمان المسلم إلا بالعمل على إحياء نظام الخلافة الذي طبق في عصر الخلفاء الراشدين، وأناط تلك المهمة بما أسماه "حزب الله"<sup>(٦)</sup>.

فليس ثم نظام شرعي يمكن أن يكون بديلاً "لحاكمية الإلهية"، وما عداها من نظم تدخل في إطار ما أسماه "حكم الطاغوت" (٧).

ويرى أنه مسئول عن تردي أحوال العالم الإسلامي وسقوطه فريسة للغزو الأجنبي. ولا مندوحة عن تحريره إلا بإخراج شرع الله من "القول إلى الفعل"، عن طريق "ثورة إسلامية" تقضي على "الفلسفات الشيطانية"، وتقيم "حدود الله وشريعته" (٨).

على أن إقامة شرع الله لا يتحقق إلا في "دولة" وهي - في نظره - "دولة عالمية" تستند إلى القوة وترغم الخصوم على اعتناق الإسلام، أو دفع "الجزية" (٩)؛ إذ لا يمكن أن تستقر أمور الحياة الإسلامية في "ظل نظم كافرة" (١٠).

والإسلام - في نظر المودودي - "دين ودولة"؛ حسب ما أسماه "نظرية الاستخلاف" وفق تأويله الخاص لهذا المفهوم في القرآن الكريم (١١). كما ذهب إلى أن الرسول "ص" كان حاكماً مهمته "إقرار قانون الله وشريعته" ليسود بين جماعة المسلمين ويطمح إلى "إصلاح العالم كله" (١٢).

لذلك؛ وجب على المسلمين تكملة إيمانهم بالعمل على تحقيق "حاكمية الله" (١٣)؛ وذلك بإقرار صيغة إسلامية في السياسة والحكم، وفق مبدئي "العبودية لله" و"الكفر بالطاغوت" (١٤).

ولأن الحاكم "خليفة الله في الأرض" وجب أن تكون طاعته ملزمة، طالما عمل على تحقيق "نظرية الاستخلاف"؛ التي تهدف إلى

"عمران الكون"<sup>(١٥)</sup>. عندئذ تصبح الخلافة "إلهية"، برغم دعوته لاختيار الخليفة وفق مبدأ "الشورى"<sup>(١٦)</sup>.

كما يرى أن القرآن الكريم انطوى على تشريعات تتعلق بكافة أمور الحياة في المجتمع الإسلامي، وتعالج موقفه إزاء العالم الخارجي، ضارباً أمثلة عديدة عن القضايا الخاصة بالقصاص والاقتصاد والاجتماع والسياسة الداخلية والخارجية. كما ألح على مفهوم "الجهاد" باعتباره حجر الزاوية في تطبيق تلك التشريعات<sup>(١٧)</sup>.

أما الأمور المستحدثة نتيجة المتغيرات، فيجب "الاجتهاد" بصددتها؛ عندئذ يصبح الاجتهاد الصحيح بمنزلة "القانون"<sup>(١٨)</sup>. ويحمد له فتح باب الاجتهاد على مصراعيه، حين قال بمشروعية المصالح المرسله والاستحسان فضلاً عن القياس<sup>(١٩)</sup>؛ مخالفاً بذلك معظم السلفيين. يحمد له أيضاً إجازة الثورة على الحاكم الظالم وإقرار حرية المعتقد وحرية التعبير، وصيانة الإنسان في حياته وماله وعرضه<sup>(٢٠)</sup>.

أما أنموذجه المستهدف، فيكمن في عصر الرسول "ص" والخلفاء الراشدين<sup>(٢١)</sup>؛ حيث تحقق خلاله مفهوم "القومية الإسلامية" المغاير للمفاهيم الليبرالية عن الوطنية والقومية المؤسسة على "العنصرية"<sup>(٢٢)</sup>.

لذلك؛ ألح على رفض الاقتباس من الغرب، لأن نظمهم أبعد ما تكون عن تحقيق العدالة الاجتماعية، تلك التي تنفرد بتحقيقها الشريعة الإسلامية<sup>(٢٣)</sup>. ولعل ذلك كان سبب تحامله المقذع على النظامين الرأسمالي والاشتراكي، سواء بسواء<sup>(٢٤)</sup>.



واختص المودودي عصر الرسول والخلفاء الراشدين بدراسة مفصلة؛ بهدف إثبات صلاحية مفهوم "الخلافة"؛ حيث طبق بالفعل وحقق أهدافه الإيجابية التي تفوق إنجازات النظم الغربية الليبرالية المعاصرة<sup>(٢٥)</sup>.

عندنا أن المودودي تفرد في طرحه السلفي بإقراره مبدأ الاجتهاد وتوسيع دائرته، كذا إقرار حقوق الإنسان العامة في المعتقد والتعبير، وصيانة النفس والمال والعرض. ومع ذلك نرى أنه اعتسف تأويل القرآن والحديث ليساير أفكاره. كما أنه نظر إلى العصر الراشدي نظرة مثالية، وسكت عن الكثير من "المسكوت عنه". هذا فضلاً عن رؤيته القاصرة بصدد فهم ماجريات الواقع في العالم الإسلامي والغرب.

وبخصوص أفكاره المتطرفة عن "الحاكمية" و"التكفير" و"الطواغيت" و"حزب الله" و"حزب الشيطان"... الخ من الاصطلاحات التي أخذتها عنه الحركات الأصولية المتطرفة المعاصرة، نلاحظ أنها كانت مرتبطة بمعطيات مجتمع الهند في زمنه، واضطهاد المسلمين من قبل "الهندوس" والإنجليز؛ ولذلك ليس هناك ما يبررها بصدد واقع أقطار العالم الإسلامي المغاير.

وإذا اتخذ من عصر الرسول "ص" والخلفاء الراشدين أنموذجاً يمكن إحياؤه، فقد فاتته ضالة وبساطة النظم المتبعة في عصر الرسول "ص"، كذا اعتمادها -في الغالب- على "الوحي" في التشريع، وعلى

"التجريب" في الممارسة، بحيث يستحيل إحياء هذه التجربة كنموذج يحتذى به في العصر الحديث. وحسبنا أن ثلاثة من الخلفاء الراشدين قد قتلوا، فضلاً عن اختلاف سياسات كل من الخلفاء الأربعة، حسب تطور الواقع التاريخي. ناهيك عن اختصاص "قريش" بالخلافة، بما يتعارض مع جوهر الإسلام.

لذلك؛ نرى أن اتخاذه "نموذجاً" يمكن إحيائه، ينطوي على اعتساف، فضلاً عن أن "التاريخ لا يعيد نفسه".

نرى أخيراً؛ خطأ حكمه عن العصور الإسلامية اللاحقة، إذ اعتبرها "لا إسلامية"، بينما كانت هي عصور تكوين "دار الإسلام" أو الدولة الإسلامية العالمية، فضلاً عن كون العصر العباسي يمثل أزهى عصور ازدهار الحضارة العربية الإسلامية.

ومع ذلك، لا ننكر أن أفكاره أثمرت بالفعل في تكوين دولة "باكستان" الحديثة التي كان هو أول من دعا إلى تأسيسها.

أما عن النموذج التالي المعبر عن الاتجاه القائل بقدسية الخلافة الإسلامية، فيمثله الدكتور "محمد ضياء الدين الرئيس" في كتابه "النظريات السياسية الإسلامية".

ومعلوم أن هذا الكتاب كان رداً على كتاب "الإسلام وأصول الحكم" للشيخ "علي عبد الرازق" الذي ذهب فيه إلى أن "الخلافة" نظام لا علاقة له بالإسلام، إنما كان نظاماً "دنيوياً" "زمنياً" لا دينياً.

اعتبر الدكتور الرئيس هذا الكتاب ضمن "الآراء الهدامة ضد الإسلام"<sup>(٢٦)</sup>. كما اعتبر كتابه -هو- دراسة علمية موضوعية أحاطت بالجانب النظري والواقع التاريخي<sup>(٢٧)</sup>؛ وهو ما نرفضه تماماً نظراً لانهيائه الكامل لأطروحة السلفيين عن الخلافة الإسلامية.

يرى المؤلف أن حكومة الرسول "ص" أنموذج للقدوة والقياس<sup>(٢٨)</sup>؛ ورغم حكمه بأن العصر والتجربة كانا خلواً من أية نظريات أو مؤسسات في الحكم<sup>(٢٩)</sup>.

ويذهب إلى أن النظام "كان سياسياً دينياً"؛ لأن الإسلام - في نظره - "دين ودنيا"؛ حيث جمع بين الحياة الروحية والمادية في وحدة لا تنقسم<sup>(٣٠)</sup>.

كما يشيد - شأنه شأن السلفيين عموماً - بعصر الخلفاء الراشدين؛ زاعماً أنه شهد بواكير النظم الإسلامية الحقيقية، فضلاً عن نشأة الفكر السياسي عند الفرق الإسلامية في صورة نظريات<sup>(٣١)</sup>.

وعندنا، أن هذا الحكم مبالغ فيه، فما جرى من تأسيس بواكير النظم كان اقتباساً عن نظم الفرس والروم، كما أن الفرق الإسلامية لم تضع نظرياتها السياسية إلا في العصر العباسي. ناهيك عن أن فكر فرق المعارضة كان محاصراً ومضطهداً، لم يؤخذ به إلا في عصور تالية، كالعصر البويهي والعصر الفاطمي.

يعود المؤلف إلى كتب "الأحكام السلطانية"؛ متخذاً من محتواها دليلاً على تكامل النظم الإسلامية<sup>(٣٢)</sup>؛ متجاهلاً كون هذه الكتب دون فيها ما يبرر سياسات الأمر الواقع.

كما يعتبر مباحث "الإمامة" في علم الكلام مرجعية لنظريات إسلامية صرفة<sup>(٣٣)</sup>؛ دون تمييز بين رؤى المعتزلة ورؤى خصومهم الأشعرية.

إذ كان فكر المعتزلة - طوال العصر العباسي الثاني - معبراً عن سياسات معظم قوى المعارضة المحاصرة والمضطهدة، بينما برر الأشاعرة - فقهاء السلطان - للنظم القائمة المستبدة، بدءاً بالأشعري وانتهاء بالغزالي.

يقول المؤلف بمفهوم "وجوب الإمامة" كجزء من العقيدة<sup>(٣٤)</sup>؛ وهو أمر اختص به الشيعة فقط. كما يقول بمشروعيته نظام الخلافة في العصر الراشدي، وما تلاه؛ مدلياً على ذلك "بالإجماع" و"البيعة"، وهو يعلم أن الإجماع لم يتحقق البتة - حتى خلال العصر الراشدي - كما كانت البيعة في العصر الأموي وما تلاه تؤخذ بطريقة "الترغيب والتهديد"<sup>(٣٥)</sup>؛ وهو أمر يفت في مشروعيته. كما كان نظام "الوراثة" - الذي يجافي مبدأ الشورى الإسلامي - هو السائد طوال العصور التالية للعصر الراشدي.

ولكونه مؤرخاً - يدرك ذلك ويعلمه - فقد تجاهل تلك العصور الطويلة، ليتحدث عن العصر العثماني - البغيض - باعتباره "يمثل قوة الإسلام ووحدة أكثرية المسلمين" (٣٦).

ولما سقطت الخلافة نهائياً سنة ١٩٢٤م على يد "أتاتورك"، نرى المؤلف يدعو المسلمين إلى وجوب إحيائها، باعتبار ذلك من صميم الإيمان، فضلاً عن كونه حفاظاً على تراث المسلمين في الفكر السياسي الذي يحكم عليه - بإطلاق - بإقراره مبدأ "العقد السياسي الحقيقي" الذي يسجل - في نظره - سبقاً إسلامياً على النظم الغربية الليبرالية (٣٧). وقد بلغ الشطط في الغلو حين جعل من كتب "الأحكام السلطانية" مرجعية لديموقراطية إسلامية (٣٨) تتجاوز الديموقراطية الحديثة، متجاهلاً كون معظمها مبررة لحكومات "المتغلبين" الذين خرجوا على تقاليد الخلافة نفسها، والأنكى أخذه بمفهوم "الشوكة" عند ابن تيمية، أو "العصبية" عند ابن خلدون كشرط لقيام الخلافة (٣٩)، وهو ما يتعارض مع مبدأ الشورى شكلاً وموضوعاً.

وضرب عرض الحائط بموقف الأمة حين قال بأنه "يكفي وجود شخص واحد يعقد البيعة للإمام" (٤٠)؛ متجاهلاً مبدأ "الإجماع". بل برر "ولاية العهد" (٤١)؛ شأنه في ذلك شأن فقهاء السلطان. والأدهى قوله "بعدم ضرورة الاختيار" (٤٢)، فهل هذا هو مفهوم الإسلام عن الخلافة؟

أما ما كتبه - بعد ذلك - عن الخطط الخاصة بالمناصب كالإمارة والوزارة والقضاء... الخ فقد أسبغ عليها الطابع الديني بالمثل. والأغرب أن يرجع إلى مصادر مختلفة تعبر عن مذاهب مختلفة - بل أفضت إلى صراعات دموية - لينسج من خيوطها "ثوباً" فضفاضاً عن مفهوم الحكم في الإسلام<sup>(٤٤)</sup>؛ بما يتعارض مع الادعاء بالحياد والموضوعية في مقارنة موضوع الدراسة.

أما عن الخلفاء الجائرين، فقد أرجأ أمرهم إلى "مسئوليتهم أمام الله"<sup>(٤٥)</sup>؛ وينتهي إلى حكم نهائي عن "الخلافة" فحواه أنها "توموقراطية" أي أنها "حكومة قانون"<sup>(٤٦)</sup>!! سبقت أوروبا إلى الأخذ بالديموقراطية<sup>(٤٧)</sup>، لتصيغ "نظاماً فريداً خاصاً بالإسلام"<sup>(٤٨)</sup>.

خلاصة القول، أن ما طرحه المؤرخ المفكر بصدد موضوع الخلافة الإسلامية محض أفكار خاطئة و"توليفات" لا أصل لها في الواقع العملي، ولا على الصعيد النظري. إن ما قدمه محض أحكام تبريرية تفتقر إلى المصداقية، وتستهدف مقاصد غير معرفية، ابتغاء الشهرة على حساب اجتهاد الشيخ علي عبد الرازق. ولا غرو، فقد تباهى بما قدمه له وجهاء الساسة وشيوخ الأزهر من "أوسمة" تشهد على "عبقريته" مزعومة.

أما الأنموذج الثالث؛ فيمثله "د. محمد فتحي عثمان" في كتابه "من أصول الفكر السياسي الإسلامي"؛ الذي عول فيه على الواقع التاريخي

بصدد مسألة الخلافة. أما الجانب النظري "الشاحب" فقد استمد من كتب الأحكام السلطانية السنية ليس إلا.

فعلى نهج السلفيين، اعتبر المؤلف تجربة حكومة الرسول "ص" في المدينة أنموذجاً يجب على المسلمين إحياءه. إذ توفر لتلك الحكومة "الأرض" و"الأمة"، أما الأرض فبدأت بالمدينة ثم امتدت لتشمل شبه جزيرة العرب، بينما مثل الأمة أصناف شتى من المسلمين وغير المسلمين من العرب وغير العرب<sup>(٤٩)</sup>. ثم يناقض نفسه حين ذهب إلى أن "العقيدة" جمعت بين تلك العناصر المتعددة، فدولة الرسول "ص" دولة عقيدة إيديولوجية ترتبط بالإسلام<sup>(٥٠)</sup>. ولا ندري سبب إقحام لفظة "إيديولوجية" في هذا التعريف. أما "دستور" الدولة فقد تمثل في "الصحيفة" التي أصدرها الرسول "ص" بعد هجرته إلى المدينة؛ التي اعتبرها "الوثيقة التأسيسية" للدولة الإسلامية الأولى، والتي استمدتها الرسول "ص" من القرآن ومن سنته<sup>(٥١)</sup>.

ومعلوم أن "الصحيفة" كانت تحديداً للعلاقات بين سكان المدينة، لكن من المعلوم أيضاً أن الرسول "ص" سواء في تشريعاته أو في سياسته العملية عدل عن الكثير من الأحكام حسب معطيات الظروف ومتغيراتها، كما هو الحال - مثلاً - بالنسبة لسياسة "المواخاة" بين المهاجرين والأنصار، أو الموقف من مسألة "الأسرى"؛ حيث نزل الوحي بأحكام أخرى. كذا بالنسبة لعلاقته مع جماعات اليهود، حيث عامل بعضها وفق شروط مغايرة لتلك التي اتبعها مع البعض الآخر.

ونفس الحكم ينسحب على موقفه من مسألة الفيء والغنيمة، بحيث يمكن الدّزيم بأن "الوحي" نفسه وضع اعتباراً للمعطيات المتغيرة.

وفي عرض المؤلف لأحداث اجتماع "السقيفة" بعد وفاة الرسول "ص" عرض وقائع غير ذات مغزى بالنسبة لموضوع الخلافة، وسكت عن أخرى وثيقة الصلة بالموضوع، لا لشيء إلا لتعارضها مع أطروحته. عول على نهج تبريري في اختيار أبي بكر لعمر فحواه "قطع الطريق على احتمالات الفتنة"<sup>(٥٢)</sup>. كذا في دعواه عن اختيار "عثمان" بأنه كان تطبيقاً لمبدأ الشورى<sup>(٥٣)</sup>؛ متجاهلاً حقيقة ما جرى بصدد هذا الاختيار من "مناورات" سياسية قصد من ورائها تتحية علي بن أبي طالب الذي قال عنه عمر "والله لو وليها الأجلح لحمل الناس على الجادة!!"

وبرر الاختلاف في طريقة تولي الخلفاء الراشدين الأربعة، باعتباره "محل اجتهد"<sup>(٥٤)</sup>.

في حين اعترف بان تولية "معاوية" جاءت نتيجة قوة عصبية. وعندنا أن تولية الخلفاء الراشدين أنفسهم تمت نتيجة قوة عصبية قريش وبأسها.

ويستطرد المؤلف في التعويل على نهجه التبريري، حين برر تحويل الخلافة إلى "ملك عضوض" طوال العصر الأموي "بالخوف من افتراق الكلمة"<sup>(٥٥)</sup>. بل امتدح كافة خلفاء بني أمية لأنهم -في نظره- "كانوا من الدين بالمكان الذي كانوا عليه"، ولم يتورع عن ذكر روايات



- منحولة- عن إشادة الرسول "ص" ببني أمية، و أخرى عن ابن كثير وابن العربي وغيرهم "لفضائل بني أمية"<sup>(٥٦)</sup>.

ولنا أن نتساءل: هل كانت "الخلافة" -نظراً وعملاً- تجرى على نسق واحد خلال عصر صدر الإسلام؟ إذا كانت الإجابة بالنفي، فما هو النموذج الذي دعا المؤلف إلى إحيائه؟.

أما عن الخلافة في العصر العباسي، فقد سكت المؤلف عنها تماماً، ربما لاستحالة تطبيق منهجه التبريري، فيما نرى.

وبخصوص الجانب النظري بصدد مسألة "الخلافة" عول المؤلف على كتب الأحكام السلطانية السنية، ساكناً عن مصادر قوى المعارضة.

والأنكى زعمه أن مؤلفي تلك الكتب كانوا من الفقهاء الأجلاء الذين صاغوا الأحكام والشروط "على هدى شريعة الله وبالإفادة من عبر التاريخ"<sup>(٥٧)</sup>. وتلك - لعمري- فرية أبخس من أن نناقشها، ونكتفي بالتساؤل: هل كان هؤلاء الفقهاء أتقياء حين جوزوا مشروعية حكم "المتغلب" الجائر، وحين ألزموا الرعية بوجوب طاعته؟ وحين حظروا عليهم حتى مجرد نصحه وإرشاده؟

أما عما زعمه عن "عبرة التاريخ"، فبغض النظر عن "هولامية" العبارة، أفلا يعرف المؤلف انتماء هؤلاء الفقهاء جميعاً إلى المذهب الأشعري الذي "كفر" سائر قوى المعارضة وشكك حتى في أنساب من أسس منهم دولاً طبقت مبادئ الإسلام في العدالة الاجتماعية ؟

أما عن مسألة وجوب الخلافة؛ فقد عول على مرجعية أشعرية أو سلفية، إذ لجأ إلى كتابات الغزالي وابن تيمية ورشيد رضا يستمد منها ما يرجح دعواه في أن "ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين إلا بها"<sup>(٥٨)</sup>. ولم يفته تكفير الشيعة والتنديد بمفهومهم عن "الإمامة"، مردداً أراجيف فقهاء الأشعرية، من أمثال ابن خلدون<sup>(٥٩)</sup>. كما نقل عن الماوردي - الأشعري - شروط الخلافة التي تنص على "النسب القرشي"<sup>(٦٠)</sup>؛ ونقل عن ابن خلدون - الأشعري أيضاً - ضرورة اشتراط العصبيية<sup>(٦١)</sup>.

والسؤال هو: ألا يتعارض ذلك مع جوهر الإسلام بعمامة ومبدأ الشورى خاصة؟

ويمضي المؤلف قدماً في تأكيد دعواه عن إحياء الخلافة ناقلاً أفكار ابن تيمية في كتابه "السياسة الشرعية"<sup>(٦٢)</sup>، وهي -في نظرنا- ذات سمة مثالية، كذا أفكار الغزالي -برغم تناقضها مع آراء ابن تيمية تماماً- والتي حمل فيها على المعتزلة والشيعة خصوصاً في كتابه "فضائح الباطنية"<sup>(٦٣)</sup> الذي فنده "علي بن الوليد" في كتابه "دامغ الباطل وحتف المناضل".

والأنكى أخذه برأي "الماوردي" في "الشورى" ليحددها "قيماً يجوز الاجتهاد فيه مع مراعاة الشروط الشرعية"<sup>(٦٤)</sup>. ومع ذلك يحكم بأن "الإسلام سيق الغرب إلى نظرية العقد الاجتماعي"<sup>(٦٥)</sup>.

خلاصة القول؛ أن أطروحة السلفيين عن مفهوم الخلافة تتسم بالانتقاء والانهيار المرجعي والهشاشة المنهجية والقصور المعرفي والمنطق التبريري.

أما الاتجاه الثاني الذي يرى في الخلافة نظاماً زمنياً دينوياً ويدعو إلى فصل الدين عن الدولة إيديولوجياً، فتمثل له بثلاثة مفكرين معاصرين، هم الشيخ على عبد الرازق والشيخ خليل عبد الكريم والأستاذ جمال البنا.

كتب الشيخ على عبد الرازق كتابه "الإسلام وأصول الحكم" الذي أثار ضجة كبرى، ارتبط فيها السياسي بالديني، وانتهت بمحاكمته من قبل الأزهر وعزله من وظيفته كقاض شرعي.

ويحمد للرجل جرأته وجدة رأيه وصراحته التي "لا تشوبها مواربة"<sup>(١٦)</sup>؛ في المبحث الأول من الكتاب وعنوانه "الخلافة والإسلام"، عرض المؤلف حجج الاتجاه السلفي مفنداً إياها، مخطئاً القول بأن الخليفة هو "خليفة الله على الأرض"، ومن ثم فسلطته مطلقه في أمور الدين والدنيا<sup>(١٧)</sup>.

ويحمد له اعترافه بأنه ليس أول من فند هذا الزعم، إذ سبقه الفقيه "الكاساني" وبعض رجالات المعتزلة الذين قالوا أن الأمة هي مصدر سلطة الخليفة<sup>(١٨)</sup>. ويؤكد المؤلف صدق هذا الاتجاه على أساس أن موضوع "الخلافة" لم يرد بصدده نص لا في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية<sup>(١٩)</sup>.

كما أن مبدأ "الإجماع" لم يتحقق طوال عصور التاريخ الإسلامي<sup>(٧٠)</sup>؛ بل كانت تولية الخلفاء حتى في عصور الخلفاء الراشدين تجري وفق قانون القوة والغلبة، لا الشورى<sup>(٧١)</sup> والاختيار، وكان الفقهاء المواليون للخلفاء يضيفون على حكمهم شرعية زائفة<sup>(٧٢)</sup>.

وإذا كنا نوافق الرأي في ذلك، إلا أننا نختلف مع مقولته عن إحجام الفقهاء عن الكتابة في علم "السياسة" بإطلاق. إذ وقفنا على كتابات ضافية - منها على سبيل المثال كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة - صادرها فقهاء السلطة وشككوا في علم أصحابها<sup>(٧٣)</sup>.

نوافقه الرأي أيضاً في عدم مشروعية "البيعة"، نظراً لانعدام مبدأ "الإجماع" من ناحية، وأخذ البيعة من "أهل الحل والعقد" إما بالترغيب أو التهديد من ناحية أخرى.

فنظام الخلافة - في نظره - شكل من أشكال الحكم الديني لا علاقة له بالدين، شأنه في ذلك شأن نظم أخرى متعددة شهدها العالم الإسلامي على امتداد تاريخه الطويل<sup>(٧٤)</sup>. وضرب عدة أمثلة لتلك النظم التي اعتبرها - هي ونظام الخلافة نفسه - نظاماً استبدادية أساءت إلى الإسلام والمسلمين<sup>(٧٥)</sup>؛ وهو حكم صحيح تاريخياً فيما نرى.

في المبحث الثاني وعنوانه "نظام الحكم في عصر النبوة"، حاول إثبات أن هذا النظام لم يتبلور في صيغة مميزة، ولم تتكامل مؤسساته ولم تحدد سلطات القائمين عليه ولا حتى اختصاصاتهم<sup>(٧٦)</sup>. وما اتضح بصدده من معلومات يشي بأنه قريب الشبه بالنظم الملكية التقليدية<sup>(٧٧)</sup>،

وألح على عدم وجود نظام مؤسسي للقضاء، واعتبر "الجهاد" عملاً سياسياً لأن الدعوة للإسلام لا تعتمد القهر، بل الإقناع والموعظة الحسنة، فلا إكراه في الدين<sup>(٧٨)</sup>.

لذلك - وغيره - حكم بأن مهمة الرسول "ص" كحاكم لا علاقة لها بكونه نبياً مرسلًا، ومن ثم فنظام الخلافة ليس جزءاً من العقيدة<sup>(٧٩)</sup>؛ إذ لم توجد في دولة المدينة أركان ثابتة ونواميس مستقرة، كما هو شأن النظم المعروفة<sup>(٨٠)</sup>. لذلك، فإن ما قام به الرسول "ص" من سياسات كانت تعتمد على الوحي، أو حسب فطرته السليمة وأخلاقياته الفاضلة<sup>(٨١)</sup>، لكنه مع ذلك يناقض نفسه حين ينص على أن "ولاية الرسول" ص كانت ولاية روحية<sup>(٨٢)</sup>. ويسترسل في ذكر أحاديث نبوية تدلل على أن الرسول "ص" رفض تشبيهه بالملوك، وأن رسالته ليست إلا "البلاغ"<sup>(٨٣)</sup>.

في المبحث الثالث، وعنوانه "الخلافة والحكومة في التاريخ"، يذهب إلى أن الدين كان بمثابة "الرابطة" التي جمعت بين شعوب شتى، بما ينفي الزعم بوجود "وحدة سياسية في عهد الرسول" ص<sup>(٨٤)</sup>.

وبوفاته، ظهر الخلاف بين الصحابة، واندلعت حركة المرتدين لأنه لم يعين من يخلفه في الحكم<sup>(٨٥)</sup>، مندداً بما أثير حول اختيار أبا بكر أو علي<sup>(٨٦)</sup>؛ باعتبارها روايات مختلفة. وأن ما يتعلق بأمر الحكم من بعده يدخل في إطار السياسة، دون أدنى صلة بالعقيدة<sup>(٨٧)</sup>؛ لذلك كانت الخلافة خلال عصر الراشدين بمثابة "حكومة مدنية دنيوية"<sup>(٨٨)</sup>.

وما جرى من حروب داخلية -الردة- وخارجية "كانت حروباً سياسية قحة"<sup>(٨٩)</sup>. أما عن إعطاء الفقهاء "الخلافة" مسوحاً دينياً، فكان توجهها من لدن الحكام لإعطاء حكمهم مشروعية دينية<sup>(٩٠)</sup>. لذلك جرى بحث موضوع الخلافة فقهيّاً في إطار الدين، لا السياسة<sup>(٩١)</sup>. وما قام به الفقهاء من تأصيل لنظام الخلافة ورسومه ومؤسساته "لا شأن له بالدين وإنما كان الأمر فيه يرجع إلى العقل والتجريب"<sup>(٩٢)</sup>.

وكان من الممكن أن يجد الشيخ علي عبد الرازق دعماً لأطروحتة - التي نأخذ بها - لو أنه درس عصور التاريخ الإسلامي التالية، وهو مالم يقدم عليه، ربما من قبيل عدم الإحاطة بالتاريخ الإسلامي. كذا إهمال دراسة موضوع "الإمامة" عند فرق المعارضة، بما تنطوي عليه من معلومات ضافية وكافية لتعرية وجهة نظر خصومه.

ويبدو أنه اكتفى بما قدم عن عصر الرسول "ص" والخلفاء الراشدين نظراً لاستدلال هؤلاء الخصوم بهذين العصرين على دعواهم في "إحياء الخلافة" وتعويل "السلفيين" عموماً على هذين العصرين "كأنموذج" تصدي لهدمه.

وقد اعترف في مقدمة كتابه بهذا القصور المعرفي ووعده باستيفائه مستقبلاً، لكن نجاح خصومه - الملك فؤاد والأزهر خصوصاً- في النيل منه حال دون تحقيق طلبته. ومهما كان الأمر، فالثابت أن الكتاب كان من أسباب إفساد دعوة الأزهر لتقليد الملك فؤاد

الخلافة، وأنه مثل ريادة جسورة في اقتحام موضوع شائك بالغ الحساسية<sup>(٩٣)</sup>؛ حيث اعتبر فيما بعد مرجعية أساسية للاتجاه المعادي للدولة النيقراطية.

في مقدمة أصحاب هذا الاتجاه يقف المرحوم الشيخ "خليل عبد الكريم"<sup>(٩٤)</sup> صاحب كتاب "نعم لتطبيق الشريعة.. لا للحكم" حيث تأثر بأفكار سلفه الراحل. إذ ندد بمفهوم "الدولة النيقراطية" وادعاءات الداعين إلى "الحاكمية الإلهية"<sup>(٩٥)</sup> باعتبارهم - في نظره - ليسوا غيورين على الإسلام بقدر طموحهم لتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية، فضلاً عن كونهم "أداة" في أيدي قوى خارجية عربية وأجنبية<sup>(٩٦)</sup>.

كما اتهمهم بالقصور المعرفي حتى في مجال العلوم الدينية، خصوصاً فيما يتعلق بأسباب نزول آيات القرآن الكريم، وبالذات بالنسبة للآيات الخاصة بالقضاء والتي أولوها لتتعلق بالحكم، مثل الآية "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون" ومثيلاتها. والحق أن الرجل قدم بصدد اجتهاداً موقفاً، حيث أثبت تعلقها باليهود والنصارى، وليس المسلمين، كما أثبت أن القضاء -الحكم- سبب نزولها<sup>(٩٨)</sup>. وأن جهل السلفيين بأسباب نزولها كان من وراء ظهور مفهوم "الحاكمية"، بما يعني اتهامهم "بتحريف الكلم عن مواضعه"<sup>(٩٩)</sup>. كما يحمده أيضاً إثبات أن مفهوم "الحكم" في القرآن وعند الصحابة عبر عنه بكلمة "الأمر"، كما هو الحال بالنسبة للآية

الكريمة "وشاورهم في الأمر"، وأمرهم شورى بينهم"، وقول أبي بكر بعد توليه الخلافة "وليت هذا الأمر".

وأرجع مفهوم "الحاكمية الإلهية" الخاطئ إلى "المودودي" الذي لا يجيد اللغة العربية فضلاً عن ضالة معارفه بالعلوم الدينية، خصوصاً علوم القرآن<sup>(١٠٠)</sup>.

كذا إلى "سيد قطب" الذي تصدى - دون روية - لتتظير هذا المفهوم الخاطئ إبان أزمة حلت به وجماعة "الإخوان المسلمين".

والأنكى إضافته مفهوم "التكفير" الذي يتناقض مع جوهر الإسلام<sup>(١٠١)</sup>. بل أنه اتهم "حسن الهضبي" -مرشد جماعة الإخوان- موافقته على هذا التأويل الخاطئ لتحقيق أهداف الجماعة في إقامة دولة تيوقراطية<sup>(١٠٢)</sup>. وفي نفس السياق يأخذ على "عبد القادر عودة" - فقيه الجماعة - موقفه من مفهوم "الشورى"، حيث أفتى "ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب"، أي أن مفهوم الخلافة، وإن لم يكن واجباً شرعياً، فإن ضرورة إحيائها تعطيلها المشروعية<sup>(١٠٣)</sup>.

وللمؤلف أيضاً اجتهاد بصدد مسألة "الحدود" وتطبيقاتها، حيث أجل التطبيق ريثما يتم تأسيس مجتمع إسلامي كامل، بل يمكن تعطيلها إبان الأزمات، مستشهداً بسياسة عمر في إلغاء حد السرقة في عام "الرمادة"<sup>(١٠٤)</sup>. وذهب إلى أن تطبيق الحدود ليس غاية في حد ذاته؛ بقدر ما يحققه من "مقاصد الشريعة"<sup>(١٠٥)</sup>. بل أن تطبيق الشريعة لا يمكن أن يتم دون وضع الأحوال الاقتصادية والاجتماعية وغيرها في



الاعتبار<sup>(١٠٦)</sup>؛ ضارباً في ذلك أمثلة دالة من عصر الرسول "ص"؛ مستشهداً بقوله "ادعوا الحدود ما استطعتم عن المسلمين؛ فإن وجدتم للمسلم مخرجاً فخلوا سبيله. فإن الإمام لئن خطئ في العفو خير له من أن يخطئ في العقوبة".

وبخصوص مسألة "القضاء" وربطها بالمذاهب الفقهية، أكد أن الخلاف في أحكامها بين وعريض<sup>(١٠٧)</sup>. وأكد على أن تطبيق الشريعة مرتين بضرورة اتساع مدارك المعرفة لدى الفقهاء من ناحية، ووعي الأمة بمقاصدها من جهة أخرى<sup>(١٠٨)</sup>.

وأعطى أمثلة كثيرة على جهل الفقهاء بالتاريخ الإسلامي والمذاهب الفقهية؛ خصوصاً "فقهاء السلطة"<sup>(١٠٩)</sup> المبررين لمظالم الحكام والغافلين عن مصالح الرعية<sup>(١١٠)</sup>. كما استعرض بعض وقائع التاريخ الإسلامي ليثبت أن القضاء في الغالب الأعم اقتصر على قضايا الأحوال الشخصية، أما الشق الجنائي فكان بيد الحكام الذين حكموا بالأهواء، لا بأحكام الشريعة<sup>(١١١)</sup>. بل أن وظائف القضاء كثيراً ما نيّطت بجهلة الفقهاء طالما قدموا الرشاوى للسلطة من أجل توليها<sup>(١١٢)</sup>.

ويختتم المؤلف كتابه بأن صورة الإسلام الحقيقي جرى تشويهها سواء من قبل الاستشراق، أو من لدن الفقهاء الذين شغلوا بالخوض في السفا سف والقشور وتكروا للقضايا الأساسية، استجابة لإغراءات الحكام<sup>(١١٣)</sup>.

خلاصة القول، بأن العمل إنجاز كبير ينم عن استتارة وجسارة في آن، وأن مؤلفه أحرص الخصوم، نظراً لاعتماده أساساً على مرجعية أصولية، فاطلع على أمهات المصادر وقرأها بوعي واستتارة؛ ليقف على حقائق جوهرية تتم عن إبداع وابتكار، خصوصاً في مجال "المسكوت عنه" و"اللامفكر فيه".

هذا فضلاً عن رؤية مستنيرة للواقع العربي والإسلامي المعاصر، من خلال متابعات دؤوبة ومخلصة بماجرىات الأمور، خصوصاً بعد تعاظم المد الأصولي الذي تصدى المؤلف لمناقشة أطروحاته ودحضها بالعلم والمعرفة.

أما عن الأنموذج الثالث والأخير، فمثله الأستاذ "جمال البنا" في كتابه الهام "الإسلام دين وأمة وليس ديناً ودولة". والمؤلف يمتاز بطول باع وغزارة اطلاع، ليس فقط في العلوم الدينية، بل في كثير من علوم الاقتصاد والاجتماع والسياسة. ولا غرو، فهو مجتهد من طراز فريد تتسم أعماله بالإبداع والابتكار؛ خصوصاً في الموضوعات ذات الطابع "الإشكالي". إذ تمتلك شجاعة العالم النزيه والغيور على الإسلام - عقيدة وشرعية، تراثنا وحضارة - كما تمتلك ملكة النقد الموضوعي البناء، متصدياً "لهدم الهدم" بهدف تحرير الإسلام من إفسار رؤى عصر الانحطاط. هذا فضلاً عن توفيقاته في "تجديد" الكثير من علوم الدين، وتقديم الإسلام في نقائه الأول، إسلام قادر على مواجهة قضايا العصر وتقديم حلول ناجعة بصدها.

في كتابه - سالف الذكر - يقدم المؤلف مصداقية ما ذهبنا إليه؛ إذ ألح على أن مقارنة مسألة "الحكم" تقتضي ضرورة توسيع "المرجعية"، فلا تقتصر - كما ذهب معظم الدارسين - على كتب الأحكام السلطانية وكتابات المؤرخين التقليديين، بل تخوض في معرفة التجارب الإنسانية والنظريات والمذاهب السياسية والاجتماعية<sup>(١١٤)</sup>.

استهل الأستاذ جمال البنا دراسته بطرح مقولة صحيحة جوهرية فحواها؛ أن "السلطة تفسد العقيدة، وأن هذا الإفساد كامن في طبيعة السلطة، ولا يمكن أبداً أن تتحرر منه"<sup>(١١٥)</sup>.

وفي البحث الأول، حاول برهنة مقولته تلك من خلال دحض دعاوى فقهاء السلطة عن "الدولة التيقراطية" استرشاداً بحكومة الرسول "ص" والخلفاء الراشدين. وفي هذا الصدد، شارك الشيخ علي عبد الرازق الرأي في أن حكومة الرسول "ص" برغم احتوائها بعض مقومات الدولة "إلا أنها تجردت من وظائف أخرى حيوية"<sup>(١١٦)</sup>. كما أنها كانت قصيرة العمر - ظلت عشر سنوات - بحيث لم تتكامل خلالها صفة "الدولة".

كما أن العصر الراشدي لم يمتد إلى أكثر من خمسة عشر عاماً، كانت حافلة بالأزمات وسفك الدماء. لذلك يرى -متفرداً في ذلك - أن الخلافة الحقيقية انتهت واختفت تماماً بعد اغتيال عمر بن الخطاب.

وباستثناء محاولة علي ابن أبي طالب إحيائها وفشلها، فإن الحكم في العالم الإسلامي تحول "إلى ملك عضوض".

وفي كل الأحوال - حتى في عصر الرسول "ص" - انتفى وجود الدولة الدينية، إذ كان الإسلام قائماً خلال "الطور المكي" بدون وجود دولة<sup>(١١٧)</sup>. من هنا يلح على اعتبار هذا الطور "الأصل والأساس" في تاريخ الإسلام<sup>(١١٨)</sup>.

ويرى في الإسلام دعوة سلم، وفي دعوته التي جرت بالحكمة والموعظة الحسنة - لا بالقهر والجبروت - انحياز للأمة، لا للحكم والسلطة؛ مدللاً على ذلك بورود مصطلح "الأمة" - لا الدولة - في القرآن عشرات المرات<sup>(١١٩)</sup>.

كما شارك - خليل عبد الكريم- الرأي في أن ورود مصطلح "الحكم" في القرآن يرمز إلى القضاء، لا السياسة<sup>(١٢٠)</sup>. ويرى أن لفظة "الملوك" في القرآن ترتبط بالقهر والظلم والطغيان<sup>(١٢١)</sup>.

وينفي على القائلين بإحياء "دولة المدينة" طموحهم؛ ذلك أن هذا النموذج غير قابل للتكرار<sup>(١٢٢)</sup>. ويشارك على عبد الرازق الرأي في أن هذه الدولة لم تتكامل مقوماتها، إذ لم يكن لها جيش محترف ولا نظم إدارية ومالية وقضائية قادرة<sup>(١٢٣)</sup>. وأن الرسول "ص" كان أشبه بالقاضي منه إلى الحاكم<sup>(١٢٤)</sup>. كما أخذ برأي خليل عبد الكريم في مسألة "الحدود" وتطبيقها، بما يغني عن التكرار<sup>(١٢٥)</sup>. وذهب إلى أن "الوحي" طالما صحح للرسول "ص"، بعض قراراته<sup>(١٢٦)</sup>. كما شرع "الجهاد" من أجل العقيدة<sup>(١٢٧)</sup>، على عكس ما ذهب إليه خليل عبد الكريم، بل لم يقتصر مفهومه على القتال وحسب، إنما شمل مجالات أخرى، أهمها

"جهاد النفس"<sup>(١٢٨)</sup>. لذلك - وغيره - اعتبر "تجربة المدينة" المؤزرة بالوحي لا يمكن أن تتكرر، بعد أن توقف الوحي<sup>(١٢٩)</sup>.

في المبحث الثاني، عرض المؤلف لعصر الخلفاء الراشدين، مؤكداً أن القرآن والرسول "ص" لم يحددوا شكلاً معيناً للحكم، ومن ثم فليست الخلافة خطة دينية<sup>(١٣٠)</sup>.

ويرى في حادثة "السقيفة" انعطافاً في تاريخ الدولة الإسلامية، حيث جرت "بيعة" أبي بكر من قبل الشعب<sup>(١٣١)</sup>، على عكس من ذهب إلى وجود دور للعصبية - قريش - في حسم الخلاف بين الصحابة. ويبيدي تعاطفاً مع الأنصار، معتبراً أن تهميشهم كان من أسباب طغيان قريش<sup>(١٣٢)</sup>.

عموماً يرى الأستاذ/ البناء أن انقطاع "الوحي" كان يعني بداية "التاريخ" الذي هو في حقيقته نتيجة فعاليات بشر يصيبون ويخطئون<sup>(١٣٣)</sup>. ومن خلال تلك الفعاليات جرت صياغة مفهوم الدولة وإقرار نظمها ونشأة مؤسساتها.

ويدلل على "الأفعال البشرية" - لا الدينية - في اختلاف طريقة اختيار الخلفاء الراشدين. ويعطي عمر بن الخطاب صفة "المبدع العظيم"؛ لأنه نتيجة اجتهاداته - كحاكم - أرسى قواعد الدولة<sup>(١٣٤)</sup>؛ بعد الإفادة من الكثير من النظم الفارسية والبيزنطية<sup>(١٣٥)</sup>.

أما عن خلافة عثمان بن عفان، فيرى فيها تدشيناً "للملكية" وبداية لاستشراء داء "العصبية"<sup>(١٣٦)</sup>. كما اعتبر ما آلت إليه أحداث "الفتنة

الكبرى" واغتيال عثمان ثم على بداية "إفساد السياسة للدين" (١٣٧). كما نظر إلى الحكم الأموي من خلال نفس المقولة؛ إذ تحولت الخلافة إلى "ملك عضوض" (١٣٨).

والغريب أن المؤلف - شأنه شأن سابقه - لم يعرض للعصور التاريخية التالية، برغم أهمية وقائعها في خدمة دحض مفهوم "الدولة الثيوقراطية".

ومع ذلك أطلق حكماً عاماً مؤداه أنه "خلال ألف وثلاثمائة سنة لم تكن الخلافة خلافة حقاً، ولكن صور متعاقبة من الحكم العضوض بكل سوءاته" (١٣٩). وإن تميز عن سابقه في تناول الفكر الشيعي -ولو في عجلة- لينتهي إلى أن السياسة أفسدت المذهب (١٤٠).

ونظراً لإلحاحه على مقولة "إفساد السياسة للدين" عقد عدة فصول لبرهناتها في تاريخ المسيحية واليهودية، وحتى في الفكر الاشتراكي (١٤١)؛ بما لا يدخل في إطار "عنوان الكتاب"، لكنه بالغ الدلالة على اتساع ثقافته وعمقها.

كما أفرد مباحث عن "مفهوم الدولة الإسلامية في العصر الحديث" (١٤٢)؛ حيث عرض للفكر السياسي الديني عند حسن البنا وسيد قطب والخميني - الذي أشاد به وبالثورة الإيرانية معتبراً إياها ثورة إسلامية - والحركات الأصولية المعاصرة، بطريقة موضوعية نقدية. هذا فضلاً عن نقد موضوعي أيضاً للتجارب "المتأسلمة" في السعودية والسودان والجزائر، مناقشاً ومفنداً لدعاويها، رافضاً إلحاقها بالإسلام.

خلاصة القول، أن هذه الإنجازات لهؤلاء المفكرين المستبشرين اتسمت بالجسارة والعمق في آن. إذ اقتحمت موضوعاً هاماً كان مثار خلاف – بل صراع دموي – طوال عصور التاريخ الإسلامي، وإلى الآن. وهنا صدق الشهرستاني حين قال: "ما سَلَّ سيف في الإسلام كما سَلَّ حول مسألة الخلافة"،،،

## المصادر والتوثيق

- (١) راجع: محمود إسماعيل: الفكر الديني المعاصر بين السلفيين والمجديين، المبحث الخاص بابن تيمية.
- (٢) أبو الأعلى المودودي : الحكومة الإسلامية، ص ١١، القاهرة، د.ت.

- (٣) نفسه، ص ١٢.
- (٤) نفسه، ص ١٤.
- (٥) نفسه، ص ١٥.
- (٦) نفسه، ص ٢٠، ٢١.
- (٧) نفسه، ص ٢١، ٢٢.
- (٨) نفسه، ص ٢٨.
- (٩) نفسه، ص ٣٢.
- (١٠) نفسه، ص ٤٨.
- (١١) نفسه، ص ٦٢.
- (١٢) نفسه، ص ٦٣.
- (١٣) نفسه، ص ٦٥.
- (١٤) نفسه، ص ٧٤، ٨١.
- (١٥) نفسه، ص ٨٣، ٨٦.
- (١٦) نفسه، ص ١٠٤.



- (١٧) نفسه، ص ١٣٠، ١٢٤، ١٢٢، ١٢٠، ١١٩، ١١٢ وما بعدها.
- (١٨) نفسه، ص ١٣٥.
- (١٩) نفسه، ص ١٤٠.
- (٢٠) نفسه، ص ٢٠٤-٢٠٧.
- (٢١) نفسه، ص ١٤٦ وما بعدها.
- (٢٢) نفسه، ص ١٥٣ وما بعدها، ١٦٥.
- (٢٣) نفسه، ص ٢١١.
- (٢٤) نفسه، ص ٢١٥، ٢١٤.
- (٢٥) نفسه، ص ٢٤٠.
- (٢٦) محمد ضياء الدين الرئيس: النظريات السياسية الإسلامية، ص ٩، القاهرة ١٩٧٩.
- (٢٧) نفسه، ص ٢٤.
- (٢٨) نفسه، ص ٢٩.
- (٢٩) نفس المرجع والصفحة.
- (٣٠) نفسه، ص ٢٧.
- (٣١) نفسه، ص ٦٦.
- (٣٢) نفسه، ص ٢٧.
- (٣٣) نفسه، ص ١٥٨ وما بعدها.
- (٣٤) نفسه، ص ١٧٥.
- (٣٥) نفسه، ص ١٩٠.

- (٣٦) نفسه، ص ٢٠٧.
- (٣٧) نفسه، ص ٢١٣، ٢١٢.
- (٣٨) نفسه، ص ٢٢٢.
- (٣٩) نفسه، ص ٢٣٢.
- (٤٠) نفسه، ص ٢٣٣.
- (٤١) نفسه، ص ٢٣٥.
- (٤٢) نفسه، ص ٢٣٩.
- (٤٣) نفسه، ص ٢١١ وما بعدها، ٢٣٥ وما بعدها.
- (٤٤) نفسه، ص ٣٤١، ٣٤٠.
- (٤٥) نفسه، ص ٣٤٢.
- (٤٦) نفسه، ص ٣٧٧.
- (٤٧) نفسه، ص ٣٧٨.
- (٤٨) نفسه، ص ٣٨٥.
- (٤٩) محمد فتحي عثمان: من أصول الفكر السياسي الإسلامي، ص ٣٣٩، بيروت ١٩٨٤.
- (٥٠) نفسه، ص ٣٤٠.
- (٥١) نفسه، ص ٣٤٣.
- (٥٢) نفسه، ص ٣٤٦.
- (٥٣) نفسه، ص ٣٤٨.
- (٥٤) نفسه، ص ٣٥٢.

- (٥٥) نفسه، ص ٣٥٣.
- (٥٦) نفسه، ص ٣٥٥، ٣٥٦.
- (٥٧) نفسه، ص ٣٥٩.
- (٥٨) نفسه، ص ٣٦٥.
- (٥٩) نفسه، ص ٣٧١، ٣٧٠، ٣٦٧.
- (٦٠) نفسه، ص ٣٧٢.
- (٦١) نفسه، ص ٣٧٣.
- (٦٢) نفسه، ص ٣٨٠-٣٨٢.
- (٦٣) نفسه، ص ٣٨٣-٣٨٤.
- (٦٤) نفسه، ص ٣٨٤.
- (٦٥) نفسه، ص ٣٩٠ وما بعدها.
- (٦٦) انظر: علي عبد الرازق: الإسلام وأصول الحكم، ص ١١٢، بيروت ١٩٧٢.
- (٦٧) نفسه، ص ١١٤.
- (٦٨) نفسه، ص ١٢١.
- (٦٩) نفسه، ص ١٢٣.
- (٧٠) نفسه، ص ١٢٧.
- (٧١) نفسه، ص ١٢٩.
- (٧٢) نفسه، ص ١٣٢.
- (٧٣) نفسه، ص ١٣٣.

- (٧٤) نفسه، ص ١٣٤، ١٣٦.
- (٧٥) نفسه، ص ١٣٨، ١٣٧.
- (٧٦) نفسه، ص ١٤٣، ١٤٢، ١٤١، ١٤٠، ١٣٩.
- (٧٧) نفسه، ص ١٤٦.
- (٧٨) نفسه، ص ١٤٧.
- (٧٩) نفسه، ص ١٥٠.
- (٨٠) نفسه، ص ١٥١.
- (٨١) نفسه، ص ١٥٥.
- (٨٢) نفسه، ص ١٥٧.
- (٨٣) نفسه، ص ١٦١.
- (٨٤) نفسه، ص ١٦٩.
- (٨٥) نفسه، ص ١٧٣، ١٧١.
- (٨٦) نفسه، ص ١٧٣.
- (٨٧) نفسه، ص ١٧٤.
- (٨٨) نفسه، ص ١٧٦.
- (٨٩) نفسه، ص ١٧٩.
- (٩٠) نفسه، ص ١٨١.
- (٩١) نفسه، ص ١٨٢.
- (٩٢) نفسه، ص ١٨٣.

(٩٣) أنظر : كتابنا : الفكر الديني في العصر الحديث، لمزيد من

المعلومات.

(٩٤) أنظر : خليل عبد الكريم: نعم لتطبيق الشريعة ... لا للحكم،

ص٧، القاهرة ١٩٨٧.

(٩٥) نفسه، ص٨.

(٩٦) نفسه، ص٩.

(٩٧) نفسه، ص١٤، ١٥.

(٩٨) نفسه، ص٢٠-٢٢.

(٩٩) نفسه، ص٢٣.

(١٠٠) نفسه، ص٢٩.

(١٠١) نفسه، ص٣٣، ٣٢.

(١٠٢) نفسه، ص٣٧.

(١٠٣) نفسه، ص٤١.

(١٠٤) نفسه، ص٤٦.

(١٠٥) نفسه، ص٥٠.

(١٠٦) نفسه، ص٥٥، ٥٤.

(١٠٧) نفسه، ص٧٥.

(١٠٨) نفسه، ص٨٤.

(١٠٩) نفسه، ص٨٩.

(١١٠) نفسه، ص٩٨ وما بعدها.

(١١١) نفسه، ص١٠١.

- (١١٢) نفسه، ص ١٠٩.
- (١١٣) نفسه، ص ١١٩ وما بعدها.
- (١١٤) أنظر : جمال البنا : الإسلام دين وأمة وليس ديناً ودولة، ص ٣ ، القاهرة، د.ت.
- (١١٥) نفسه، ص ٣، ٤.
- (١١٦) نفسه، ص ٧.
- (١١٧) نفسه، ص ١٠.
- (١١٨) نفسه، ص ١١.
- (١١٩) نفسه، ص ١٣.
- (١٢٠) نفسه، ص ١٨.
- (١٢١) نفسه، ص ٢٠.
- (١٢٢) نفسه، ص ٢٣.
- (١٢٣) نفسه، ص ٣١، ٣٠.
- (١٢٤) نفسه، ص ٣٢.
- (١٢٥) نفسه، ص ٣٣.
- (١٢٦) نفسه، ص ٣٥.
- (١٢٧) نفسه، ص ٣٦، ٣٧.
- (١٢٨) نفسه، ص ٣٨.
- (١٢٩) نفسه، ص ٣٩.
- (١٣٠) نفسه، ص ٤١.
- (١٣١) نفسه، ص ٤٨.
- (١٣٢) نفسه، ص ٤٩.
- (١٣٣) نفسه، ص ٥٢.

- (١٣٤) نفسه، ص ٦٤.  
(١٣٥) نفسه، ص ٦٩.  
(١٣٦) نفسه، ص ٧٩، ٨٠.  
(١٣٧) نفسه، ص ٩٥.  
(١٣٨) نفسه، ص ١٣٢ وما بعدها.  
(١٣٩) نفسه، ص ١٤٠.  
(١٤٠) نفسه، ص ١٤٩ وما بعدها.  
(١٤١) نفسه، ص ١٦٠ وما بعدها.  
(١٤٢) نفسه، ص ٢٤٠ وما بعدها.





# المبحث الثاني

الخلافة في الفكر السياسي



يمكن التماس الفكر الديني السني عن موضوع الخلافة في مصادر ثلاثة، هي علم الكلام الأشعري الذي أفرد مباحث عن "الإمامة" والخطط الدينية وثيقة الصلة بها. كذا في كتب "الأحكام السلطانية" التي عرضت للموضوعات ذاتها في تفصيل أكثر، والتي بررت لمشروعية النظم المستحدثة بعد ضعف الخلافة وبعد سقوطها عام ٦٥٦هـ. وأخيراً في كتب "الملل والنحل" التي كتبها فقهاء السنة بهدف التنظير لمفهوم الخلافة الثيوقراطية، ودحض المفاهيم المغايرة عند فرق المعارضة.

وننوه بأنه رغم اختلاف المظان تلك؛ إلا أن كتابها كانوا في الغالب الأعم أشعرية ينظرون للمفهوم السني للخلافة، ومن ثم كانت منطلقاتهم ومناهجهم ورؤاهم ومقاصدهم موحدة.

بخصوص المتكلمة، نعلم أن علم الكلام السني أسسه أبو الحسن الأشعري (ت ٣٢٠هـ) الذي كان معتزلياً ثم انقلب على الاعتزال وتنصل منه، بإغراء من الخليفة المتوكل العباسي. وتصدى لدحض الاعتزال - الذي كان أسبق زمنياً في تأصيل علم الكلام - وتأسيس مذهب كلامي سني<sup>(١)</sup>.

وعلى الرغم من كون هذا العلم يبحث في الإلهيات أصلاً؛ إلا أن السياسة كانت ثاوية في مباحثه؛ إذ أن الهدف الأساسي عند منظره الأشعري كان من أسباب هذا التنظير، حيث تلخص في الدفاع عن الخلافة العباسية بعد ضعفها خلال عصرها الثاني وتعاضل خطر

المعتزلة والشيعة الذي هُذِّدَ بسقوط الخلافة العباسية. لذلك انتصب الأشعري مبرراً لمشروعيتها ودحض دعاوي الخصوم وذلك بتوظيف العقل والمنطق لبرهنة النصوص الشرعية<sup>(٦)</sup>. من هنا حق لأحد الباحثين<sup>(٧)</sup> التابيهين الحكم بأن المذهب الأشعري لم يؤسس إلا "لنزع فتيل ما دسسته الباطنية من متغيرات؛ وذلك بالمباعدة بينها وبين العامة"، فكانت الأشعرية -لذلك- بمثابة "إيديولوجيا رسمية"<sup>(٨)</sup> استهدفت استعادة هيبة الخلافة وإنقاذها من خطر تسلط العسكر التركي في الداخل والخطر الشيعي الإسماعيلي في الخارج، وذلك بعد قيام الخلافة الفاطمية وطموحها في السيادة على العالم الإسلامي بأسره. من هنا أيضاً نرى أن الأشعري كان "فقيه السلطة" الذي حاول إثبات مشروعيتها ودحض دعاوي الخصوم عن طريق "تسييس" الدين، فكان مذهب له ذلك "معبراً عن أبعاد سياسية وتاريخية واجتماعية ثقل حضورها في النص الكلامي"<sup>(٩)</sup>؛ هذا على الرغم من قول الأشعري<sup>(١٠)</sup> بأن "قولنا وديانتنا التي ندين بها هو التمسك بكتاب ربنا عز وجل وسنة نبينا عليه السلام وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث". وفي هذا القول ما يشير إلى اتهام الخصوم - بطريق غير مباشر - بالخروج على تلك المرجعية.

ولسنا بصدد عرض آراء الأشعري في علم الكلام، بقدر ما نؤكد على اتصال هذه الآراء عن الله وصفاته، وعن مقولة "الجبر"، والموقف من مرتكب الكبيرة، ومن مبدأ "الأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر... الخ صيغت في خطاب "إيديولوجي" مستبطن - وإن بدا معرفياً - لتبرير مفهوم الخلافة السني<sup>(٧)</sup>. كما أن رأيه في ظاهرة "الإقطاع العسكري" التي فشلت في عصره، كذا في مسألة "الأرزاق" يشي ببعد طبقي فحواه مؤازرة الأرستقراطية الحاكمة<sup>(٨)</sup>.

لذلك، لا غرابة إذا كان مفهوم الخلافة - في نظره - يقوم على أساس ديني<sup>(٩)</sup>؛ انطلاقاً من تأويل خاطئ للآية الكريمة: "وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم".

أما مبدأ "الشورى" الإسلامي؛ فقد اختزلته في مفهوم "البيعة"<sup>(١٠)</sup> الذي حصره في نخبه "أهل الحل والعقد"، على الرغم من كون البيعة مجرد إجراء "شكلاني" يتم عن طريق "التزغيب والتهديد". من هنا اعتبر بيعة "الرضوان" سنداً لحكومة الرسول "ص" في المدينة، كما ذهب إلى أن الرسول "ص" اختار أبا بكر لخلافته بعد وفاته. كما اعتبر اختيار أبا بكر لعمر أمراً مشروعاً حيث يقول: "إذا وجبت إمامة أبي بكر وجبت إمامة عمر لأن أبا بكر عقد له الإمامة"<sup>(١١)</sup>. كما برر مشروعية اختيار عثمان بن عفان ومن بعده علي بن أبي طالب بتحقيق شرط المبايعه.

بل يذهب إلى أن الرسول "ص" نص على نظام الخلافة اعتماداً على حديث نبوي - نرى أنه منحول - فحواه، "الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك"<sup>(١٢)</sup>. ويرى فيما جرى من خلاف وصراع دموي على

الخلافة نوعاً من "الاجتهاد" المشروع، إذ كانوا -الصحابه- على حق في اجتهدهم<sup>(١٣)</sup>. والأُنكى أنه سحب نفس المقولة على العصر الأموي، بهدف سحبه أيضاً على خلفاء بني العباس، بما يكشف عن منطق التبريري لمشروعية "الخلافة الثيوقراطية".

وعلى نفس الوتيرة كان الفكر السياسي عند "الغزالي" -الأشعري أيضاً إذ كان مبرراً ليس فقط للخلافة العباسية، بل للسلطنة السلجوقية- التي كان فقيهاً ومنظرها الأول -برغم الصراع بين الطرفين على "السلطة" ونجاح السلاجقة في الاستئثار بها. ولعل ذلك كان سبب تخطيطه حين ذهب إلى أن الحديث بصدد موضوع "الخلافة" شائك ومثار للتعصبات<sup>(١٤)</sup>. ومع ذلك برر لمشروعية الخلافة العباسية باعتبارها "خلافة دينية" بل هي واجب شرعي ليس طريقه العقل. كما قال بالسلطة المطلقة للخليفة باعتباره "القائم على أمور الدين والدنيا". فالدين والسلطان توأمان، وبدون السلطان تحصل الفوضى وتعطل الحدود.

وهنا نلاحظ نقلة ملحوظة في فكره، إذ تحول عن مؤازرة الخلافة - بعد ضعفها وتعاطم السلطنة السلجوقية - إلى تبرير مشروعية "السلطنة"، والنظر إليها كاستمرار للخلافة<sup>(١٥)</sup>. بل اعتبر السلطان "ملكاً" يستمد سلطته من الله سبحانه، يقول "... السلطان ظل الله في أرضه، فينبغي أن يعلم أن من أعطاه الله درجة الملوك وجعله ظله في الأرض، فإنه يجب على الخلق محبته، ويلزمهم متابعتة وطاعته، ولا

يجوز لهم معصيته ومنازعته... فينبغي لكل من أتاه الله الدين أن يحب الملوك والسلطين، وأن يطيعهم فيما يأمرهم، ويعلم أن الله تعالى يعطي السلطنة والمملكة، وأنه يؤتي ملكه من يشاء<sup>(١٦)</sup>.

وحين انتعشت الخلافة العباسية بعد تمزق وضعف السلطنة السلجوقية، عاد أدراجه في مؤازرة الخلافة، واعتبر خلفاء هذا العصر شرعيين لا شيء إلا لأهم من قریش، تأسيساً على حديث منحول يقول "الأئمة من قریش". بل لا يقيم وزناً للشورى أو "البيعة"، فاعترف بمشروعية تعيين الخليفة ولي عهده، والأنكى، اعترافه بمشروعية "التفويض من رجل ذي شوكة"<sup>(١٧)</sup> وإذا كان ذلك كذلك، فهل كان السلاجقة الأتراك من قریش؟

الأمر - في تقديرى - يعود إلى حقيقة "انتهازية" الغزالي، وهو ما أخذها عليه ابن رشد وغيره؛ وهو ما اعترف بها قبيل وفاته، حين قال: "جل ما كتبت لم يكن لوجه الله"، وأنه كان يسعى إلى "المال والشهرة والجاه". من مظاهر تلك الانتهازية إضفائه على السلطنة - بعد أن استعادت قوتها - طابع الاستبداد والتسلط؛ يقول: "وسلطان هذا الزمان ينبغي أن يكون له أو في سياسة وأتم هيبة... فإن زماننا زمان ذوي الوقاحة والسفهاء... وإذا كان السلطان ضعيفاً أو غير ذي سياسة وهيبة؛ فلا شك أن ذلك يكون سبب خراب البلاد، وأن الخل يعود إلى الدنيا والدين"<sup>(١٨)</sup>. لذلك أصاب من شبه الغزالي بالفيلسوف المنظر للاستبداد "توماس هوبز"<sup>(١٩)</sup>، ومن حكم على فكره السياسي "بترير الملك

الفساد المبني على القهر بتأطير من الشريعة<sup>(٢٠)</sup>؛ أو بالأحرى جعل الدين  
مطلية السياسة.

وفي كل ذلك، كان يطوع الدين لتحقيق مآربه الدنيوية، ولا غرو؛  
فقد حاول رفع شأن "الفقيه" إلى درجة أسمى من مكانة الخليفة والسلطان.  
يقول: أن الفقيه "هو العالم بقانون السياسة وطريق التوسط بين الخلق إذا  
تنازعوا"<sup>(٢١)</sup>؛ منتهزاً ما شجر من صراعات على السلطة بين الخلافة  
والسلطنة. من هنا صدق من ذهب إلى أن دخول الغزالي الفقيه باب  
السياسة كان محكوماً بتبرير مشروعية الأقوى المتغلب<sup>(٢٢)</sup>، معولا  
على قاعدة فقهية فحواها أن "الضرورات تبيح المحظورات".

أما عن "الرعية" فلا وجود لها في منظومته السياسية، اللهم إلا  
الخشوع والطاعة<sup>(٢٣)</sup>. لذلك صدق من<sup>(٢٤)</sup> ذهب إلى أن مهمة الغزالي  
تركزت "في تقديم رؤوس الرعية منحنية للسلطان" وأخطأ من حاول  
تبرير موقفه هذا "بمراعاة التجارب العملية الواقعية"<sup>(٢٥)</sup>. إذ تخلى عن  
موقفه المسئول كفقيه عالم بأصول الشرع، وتحول إلى "سلطوي" يروج  
للاستبداد<sup>(٢٦)</sup>.

لذلك ندد به فقهاء الشيعة ومعاصروه من الفلاسفة خصوصاً ابن  
رشد - ومن لاحقيه من أمثال ابن تيمية. وعلى الرغم من سلفية  
الأخير، وكونه حنبلياً، فقد أخذ على الغزالي سلطوية، ونادى بتطبيق  
مبدأ "الشورى" يقول: "لا غنى لولي الأمر عن المشاورة. وقد قيل أن



الله أمر بها نبيه لتأليف قلوب أصحابه، ويقتدي بهم من بعده، وليستخرج منهم الرأي فيما لم ينزل فيه وحي<sup>(٢٧)</sup>.

أما عن الحاكم "المتغلب"، فقد جوز وجوده للضرورة، كما جعل هذا الوجود مشروطاً بتحقيق العدالة، بقول: "ومع أنه يجوز تولية غير الأهل للضرورة إذا كان أصلح الموجود، فيجب مع ذلك السعي في إصلاح الأحوال"<sup>(٢٨)</sup>. وهذا يعني مشروعية ثورة الرعية على الحاكم إذا أخل بهذا الشرط<sup>(٢٩)</sup>.

وعندنا أن هذا الاختلاف في المواقف السياسية، وخصوصاً بصدد موضوع الخلافة بين فقهاء السنة، دليل على هشاشة مقولة "الدولة الثيوقراطية"، وأن مرد هذا الاختلاف راجع إلى تعدد المذهبية في الفقه السني بالدرجة الأولى.

مصدق ذلك ما نتلمسه في الفكر السياسي عند "أبي المعين النسفي". فبرغم كونه متكلماً سنياً؛ إلا أنه كان على المذهب "الماتريدي" في الكلام. وبرغم انبثاق هذا المذهب من رحم "الأشعرية" إلا أن آراء النسفي في السياسة كانت أقرب إلى آراء المعتزلة<sup>(٣٠)</sup>. ففي كتابه "التمهيد في أصول الدين"؛ يقول بوجوب الإمامة. لكنه يشترك مع الأشاعرة في رفض مفهومها عند الشيعة الذين يقولون بمشروعية "الإمامة المستترة" مشترطاً أن الإمام لابد وأن يكون ظاهراً ومعروفاً عند الرعية<sup>(٣١)</sup>. كما يعول على "الإجماع" و"البيعة"، اقتداءً بعصر

الخلفاء الراشدين، برغم عدم توفر "الإجماع" ووجود من لم يعترف بخلافتي أبي بكر وعمر.

ويشترط في الإمام توفر الشروط - المعروفة عند أهل السنة عموماً- وأهمها أن يكون قرشياً. كما يذهب إلى أن الرسول "ص" نص في أحد أحاديثه على "الإمامة" وعين أبا بكر ليخلفه<sup>(٣٢)</sup>. كما اعترف بمشروعية خلافة عمر بن الخطاب لأن أبا بكر اختاره مع ثبوت خلافته، وهذا الثبوت يعني أحقية "من استخلفه"<sup>(٣٣)</sup>. كما أن عثمان بن عفان جرى اختياره عن طريق "الشورى"<sup>(٣٤)</sup>. وبرغم تنديده بالشيعة إلا أنه أقر خلافة علي بن أبي طالب "إذ انعقدت بيعة من لهم ولاية البيعة"<sup>(٣٥)</sup>. ولم يعرض للحكم الأموي والعباسي بما قد يشي بعدم اعترافه بمشروعيته.

أما ابن خلدون الأشعري المذهب؛ فيعد المنظر لأفكار سابقة بخصوص موضوع الخلافة، لكن باعتباره مؤرخاً عول على الحقائق التاريخية العيانية حين اعترف بظاهرة الحكام "المتغلبين"، ونظر بالمثل لمفهومه عن "الدولة".

وإذ تأثر بالكثير من أفكار الغزالي عن الخلافة؛ فقد خالفه في التمييز بينها وبين "الملك". فالخلافة -في نظره- "هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها. إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح

الآخرة؛ فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا<sup>(٣٦)</sup>.

والجديد في هذا التعريف هو المزيد من وضع الاعتبار للدين، إذ جعل له الأولوية، بينما اعتبر الحياة الدنيوية وثيقة الصلة بالحياة الأخروية؛ فالآخرة هي الأصل والدنيا هي الفرع التابع. ومع ذلك لم يجعل الخليفة ظلاً لله على الأرض، أي خليفة الله، بل خليفة الرسول<sup>(٣٧)</sup>.

هنا تسقط حجج من قالوا بأنه سلك مسلك الغزالي<sup>(٣٧)</sup>، إذ أن الأخير جعل الخليفة -وحتى السلطان- ظل الله على الأرض. كما لم يأخذ عن ابن تيمية -كما ذهب الباحث نفسه- إذ أثبتنا إلحاح ابن تيمية على مبدأ "الشورى".

كما شارك ابن خلدون الأشاعرة عموماً في إقرار شروط من يتولى الخلافة وأهمها أن يكون قرشياً<sup>(٣٨)</sup>. كذا في تعويله على "البيعة" و"الإجماع" لكنه قصرهما على النخبة "أهل الحل والعقد".

أما عن "الملك"؛ فقد خالف الغزالي بصدده "لأن الملك إنما يحصل بالتغلب، والتغلب إنما يكون بالعصبية"<sup>(٣٩)</sup>؛ وهو عنده مرادف للاستبداد<sup>(٤٠)</sup>.

وهنا نرى أن ابن خلدون - على عكس الأشاعرة - لم يعترف بخلافة الأمويين ولا العباسيين، إذ تدخل - في مفهومه - في إطار الملك المؤسس على "العصبية".

ويأخذ برأي ابن تيمية في تجويز "الملك" -أو أي نظام متغلب- للضرورة، شريطة تطبيق الأحكام الشرعية<sup>(٤١)</sup> والأخذ بالآداب الخلقية فضلاً عن الدربة السياسية. وفي هذا الإطار يضع النظامين الأموي والعباسي، يقول: ".فقد تبين أن الخلافة قد وجدت بدون ملك أولاً، ثم التبتت معانيها واختلطت ثم انفرد الملك<sup>(٤٢)</sup>؛ وعنده أن النظام الملكي ليس مذموماً على طول الخط "اللهم إلا إذا كانت وجهته الباطل"<sup>(٤٣)</sup>.

ولأنه كان يعيش في المغرب والأندلس بعيداً عن الخلافة الشرقية؛ لم يتورط في تبرير السياسات العباسية، خصوصاً بعد سقوط الخلافة العباسية عام ٦٥٦هـ أي قبل ولادته. كما كان مفهوماً عن "الملك" مستمداً من الواقع المغربي الذي استقرأه ووعاه باعتباره مؤرخاً، فلم يصف قدسية على الملوك؛ كما فعل الغزالي، وإن أخذ عنه مفهوم "الشوكة" وأسماء "العصبية" واعتبرها أساس قيام الدول الملوكية. وجوز مفهوم "الغلبة" في السياسة، "فأهل العصبية يحصل لهم الغلبة التي استحقوا أن يكونوا ساسة لمن تحت أيديهم أو على العموم"<sup>(٤٤)</sup>. كما جعل الغلبة بديلاً للشورى في النظام الملوكي -أو الرئاسي على حد قوله- بينما جعل الشورى أساس الخلافة<sup>(٤٥)</sup>.

ويبدو أنه أشد مبالغة في تقدير شأن العصبية والملك، فاشتراط إلى جانب العصبية وجود "دعوة دينية" بالنسبة لنظام مغاير لنظام الخلافة نص على أنه "من الأمور الإضافية"<sup>(٤٦)</sup>.

ومع ذلك يشارك ابن خلدون سابقه من الفقهاء الأشعرية في منطقته التبريري -إن لم يكن الانتهازي- لسياسات الأمر الواقع وإضفاء مشروعية دينية من منطلق الطموح الشخصي الذي لون جل أفكاره، كما أثبتنا في دراسة سابقة<sup>(٤٧)</sup>.

ومع ذلك، كان ابن خلدون آخر منظر لمفهوم الدولة الثيوقراطية؛ إذ عزف فقهاء الأشاعرة المتأخرين عن الحديث في السياسة، خوفاً أو طمعاً؛ مبررين هذا العزوف بأن "الإمامة ليست من أصول الاعتقاد.. وأن النظر فيها ليس من المهمات". وفي ذلك هدم لكل نظريات أهل السنة بصدد الحكم الثيوقراطي.

فماذا عن مفهوم الخلافة عند فقهاء "الأحكام السلطانية"؟ على الرغم من إجماع هؤلاء الفقهاء لما يجب أن يكون عليه نظام الخلافة، وأن النموذج المنشود هو عهد الرسول "ص" وعصر الخلفاء الراشدين، إلا أن متغيرات الواقع من حيث تحول الخلافة إلى ملك وراثي، ثم ضعفها وظهور نظم مستحدثة استأثرت بالسلطة عن طريق "الغلبة"، أفضى إلى محاولة استيعاب الواقع وتقعيده في إطار ديني، شأنهم في ذلك شأن علماء الكلام.

ويعد أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠هـ)، رائد الكتابة في هذا النوع من أدب السياسة، حيث صنف كتابان هما "الأحكام السلطانية" و"أدب الدنيا والدين". ومعلوم أنه كان أشعرياً، لذلك برر مشروعية الخلافة العباسية رغم ضعفها وطابعها الملكي الوراثي.

ففي كتابه الأول، اعتبر الخلافة "خطة دينية"، إذ يقول في مقدمته "أردنا أن نجعل كتابنا هذا كتاباً دينياً"<sup>(٤٨)</sup>.

أما كتابه الثاني، فقد برر فيه مشروعية السلطنة البويهية على الرغم من كون سلاطينها شيعة زيدية إستبدوا بالحكم وانتزعوا سلطات الخلفاء، بل تحكموا في تعيينهم وعزلهم.

لذلك اعتبر الماوردي هذا النظام "دينياً دنيوياً" في آن، وحين قنن له لم يعمل على القرآن والسنة بقدر اعتماده على كتب الحكمة والأدب<sup>(٤٩)</sup>. بل نهل من النظم اليونانية والفارسية فضلاً عن معطيات الواقع التاريخي كمرجعية لهذا النظام. ويبدو أنه -بذلك- حاول إثبات خروجه على الشريعة، برغم ما عرف عن البويهيين من توخي سبل الإصلاح الإقتصادي والاجتماعي وتشجيع العلم والفكر والأدب. لذلك لم يتحدث عن إلا عن "الدين والقوة والمال والثروة" باعتبارها أساس هذا النظام<sup>(٥٠)</sup>.

وإذ اعترف بمشروعيته، جرى هذا الاعتراف وفق المبدأ الشيعي الزيدي عن "جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل"، فضلاً عن مبدأ أهل السنة القائل بأن "الضرورات تبيح المحظورات"<sup>(٥١)</sup>. كما لم يعتبر هذا النظام بديلاً عن الخلافة القائمة، فاعتبره يدخل في باب "الإمارة"<sup>(٥٢)</sup>؛ ومن ثم يمكن الثورة عليه "إذا ما أحدث بدعة". لذلك ربط بين الاعتراف بمشروعيته وبين الاهتمام بمصالح الرعية<sup>(٥٣)</sup>؛ وهو ما سكت عنه بالنسبة لنظام الخلافة.

أما الفقيه أبو يعلي الفراء (ت ٤٥٨هـ)؛ فقد نقل عن الماوردي الكثير من مقولاته "نصباً" في بعض الأحيان، إلا أنه كان حريصاً على التشبث بنظام الخلافة؛ باعتباره حنبلياً. ولا غرو، فقد كانت أقوال أحمد بن حنبل مرجعه الأول<sup>(٥٤)</sup>. وذهب إلى أن الخلافة مؤسسة "على السمع لا العقل"، وقال بالشروط التي وضعها الماوردي من قبل، مع الإلحاح على اشتراط النسب القرشي<sup>(٥٥)</sup>. وأضفى على سلطات الخلافة هالة مقدسة، وأوجب الطاعة العمياء على الرعية إلى حد القول بأنه "لا يمنع من استدامة الإمامة كون متوليها فاسقاً بعد تنصيبه"<sup>(٥٦)</sup>؛ وأنه إذا تغلب متغلب على الإمامة وحازها زالت إمامة الأول لأن الإمام ابن حنبل قال (الجمعة مع من غلب)؛ شريطة أن يكون هذا المتغلب قرشي النسب<sup>(٥٧)</sup>.

كما اعترف بتقليد "ولاية العهد" إلى جانب اختيار أهل الحل والعقد<sup>(٥٨)</sup>.

والغريب أنه خالف فقهاء السنة حين اعتبر الخلافة الراشدة قائمة كلها على "الغلبة"؛ معترفاً بحقيقة ما جرى بالفعل<sup>(٥٩)</sup>. ولرفضه الاعتراف بمشروعية الإمامة الشيعية؛ قال بوجوب وجود "الإمام الواحد" الذي يمثل الخليفة العباسي مع ضعفه<sup>(٦٠)</sup>، أخذاً بمقولة أبي جعفر المنصور بأنه "ظل الله على الأرض"، مبرراً إياها بنظرية "الاستخلاف"<sup>(٦١)</sup>.

أما عن الوظائف الإدارية والمالية والقضائية والعسكرية، فقد جارى فيها مقولات الماوردي<sup>(٦٢)</sup>. وبصدد إمامة المتغلب فقد ربط مشروعيتها بموافقة الخليفة الشرعي<sup>(٦٣)</sup>.

وقد شهد القرن السادس الهجري تطوراً ملحوظاً في الكتابات الخاصة بالأحكام السلطانية؛ إذ تحولت إلى نوع من "أدب السياسة" كان الفقهاء يقدمونه للحكام من قبيل النصيح والإرشاد في الغالب الأعم. ولا نصادر على النتائج حين نرى أن تلك النصائح لم تستلهم أخلاقيات الشريعة، بقدر ما كانت وسائل وحيلاً تستهدف الحفاظ على النظام القائم بوسائل "مكيافيلية" في الغالب الأعم.

وقد أنتشر هذا النوع من الكتابة في الغرب الإسلامي خصوصاً، وإن وجدت نظائر له في الشرق أيضاً. ففي الشرق قدم ابن أبي الربيع (القرن السابع الهجري) كتابه "سلوك المالك في تدبير الممالك" للخليفة المعتصم بالله آخر خلفاء بني العباس. وقد تأثر مؤلفه بأراء الغزالي "السلطوية" إلى حد كبير؛ بما يغني عن التكرار والاجترار. إذ أضفى على النظم العسكرية القائمة طابع الشرعية، بل اعتبرها ذات طابع ديني، يقول: "إن الله خص الملوك بكرامته، ومكن لهم في بلاده، وخولهم عياده".

وحينئذ أوجب على علمائهم تبجيلهم وتعظيمهم وتوقيرهم، كما أوجب عليهم الطاعة<sup>(٦٤)</sup>.



وفي الغرب الإسلامي، الذي انفصل عن الخلافة المشرقية منذ وقت مبكر، قامت نظم استبدادية مغلقة بمسوحات دينية، كدولتي المرابطين والموحدين، تصدى الفقهاء للاعتراف بمشروعيتها وأنزلها بعضهم منزلة الخلافة.

وفي هذا الصدد كتب أبو بكر المرادي (ت ٤٨٩هـ) كتاب "الإشارة في تدبير الإمارة"، وقدمه لأبي بكر بن عمر من مؤسسي الدولة المرابطية<sup>(٦٥)</sup>. ولكونه فقيها مالكيا أشعريا، اعترف بدولة المرابطين، واعتبر يوسف بن تاشفين "أمير المسلمين"<sup>(٦٦)</sup>. ونصح الحكام باتخاذ الوسائل الممكنة للحفاظ على عروشهم، حتى لو كانت تتبع "الحيلة والمكر والخديعة"<sup>(٦٧)</sup>. وكانت مرجعيته مستمدة من الحكم والأمثال الفارسية في الغالب الأعم<sup>(٦٨)</sup>. لذلك اعتمد "القوة" و"الغلبة" أساساً للحكم<sup>(٦٩)</sup>؛ "فالسلطان إذا كان على حد من الضعف يمكن معه تغلب العمال عليه"<sup>(٧٠)</sup>.

أما أبو بكر الطرطوشي (ت ٥٢٠هـ)، فقد صنف كتاب "سراج الملوك" للمقاصد ذاتها. وبرغم تأثره بالغزالي والمرادي في إقرار مشروعية الحكومات المتغلبة، إلا أنه ألح على ترشيد الحكام ودعاهم إلى سياسة العدل والإنصاف، والاهتمام بمصالح الرعية. كما قرن طاعة الرعية بصلاح الحاكم، "لأن الإثنين كالروح والجسد". ويعزي إليه التوسع في شرح مفهوم "العصبية" أو "الشوكة"، بحيث نقل عنه ابن خلدون الكثير من أقواله، دون إشارة إليه<sup>(٧١)</sup>.

كما نقل عنه ابن الأزرق (ت ٨٩٦هـ) في كتابه "بدائع السلك في طبائع الملك"، مع الإشارة إلى مصدره. ويمتاز عن سابقه جميعاً بانتقاد النظم القائمة، فضلاً عن نزعة عقلية عول عليها في الربط بين الواقع التاريخي وأحكام الشريعة<sup>(٧٢)</sup>. كما اعتمد مفهوم "الشوكة" أو "العصبية" كشرط لقيام الدول، فضلاً عن أخذ مفهوم "الدعوة الدينية" كشرط آخر من الفكر الخلدوني<sup>(٧٣)</sup>.

وإن اعترف بمشروعية النظم المتغلبة، إلا أنه ذهب إلى كون "الإمامة" هي النظام الأمثل، باعتبارها تقود إلى وحدة الأمة<sup>(٧٤)</sup>، ونظر لها وفق منهج يدل على المنقول بالمعقول.

وفي العصر المملوكي، كتب الكثير في أدب السياسة نتيجة إحياء الخلافة في القاهرة بالرغم من عدم تمتع الخلفاء بأية صلاحيات. ولم تضاف تلك الكتابات جديداً إلى المفهوم الأشعري للخلافة، فما كتب كله كان نقلاً من مؤلفات سابقة.

أما ما يتعلق "بالسلطنة"، فقد جرى تبريرها جرياً على سنة ابن تيمية. واتسمت الكتابات عنها بالعرض والوصف مع إبراز الجانب الأخلاقي سواء بالنسبة للسلطين أو نظمهم الإدارية والمالية والعسكرية والقضائية<sup>(٧٥)</sup>.

وفي العصر العثماني، جرى الجمع بين نظامي الخلافة والسلطنة في نسق واحد. وعول الفقهاء على تبرير مشروعية هذا النظام ؛ كما هو الحال عند الأقحصاري (ت ١٠٢٤هـ) الذي عاصر ضعف النظام

العثماني، وتصدى لمحاولة إصلاحه. إذ أرجع هذا الضعف إلى الظلم والفساد السياسي والاستبداد وانفراط النظام العسكري والفساد الأخلاقي<sup>(٧٦)</sup>. ومن ثم دعا إلى ضرورة الأخذ بمبدأ الشورى، وتحديث أجهزة الدولة، واختيار رجالها من أهل الدراية المشهود لهم بالعقلانية والأخلاق الفاضلة<sup>(٧٧)</sup>.

كما طالب الحكام بإصلاح أحوال الرعية، خصوصاً الفئات المنتجة من فلاحين وحرفيين<sup>(٧٨)</sup>.

ويبدو أنه كان واسع الثقافة، إذ ضرب أمثلة من النظم الفارسية والهندية فضلاً عن القرآن الكريم والسنة النبوية وأخبار الخلفاء العدول<sup>(٧٩)</sup>. كما ألح على تطبيق مبدأ الشورى فعقد في كتابه فصلاً كاملاً عرض فيه لأهل الحل والعقد وشروط اختيارهم، كما حض على "الجهاد" داعياً إلى تحديث الجيش<sup>(٨٠)</sup>.

ويشي العرض بتوجيه النقد للنظام القائم، بما يفت في صلاحيته. خلاصة القول، أن كتب الأحكام السلطانية وأدب السياسة تتطوي على تصور لا يختلف عما قدمه علم الكلام الأشعري، اللهم إلا تمييزها بطابع التقنين والتعديد والتنظير.

أما عن المصدر الثالث والأخير، فيكمن في أطروحات الفلاسفة والحكماء. إذ لم تخل أنساقهم الفلسفية من أبعاد سياسية، هذا فضلاً عن تأليف بعضهم في السياسة والمجتمع، فيما أسماه الفارابي "الفلسفة العملية".

نلتبس هذا البعد في فلسفة ابن سينا الذي عاش في كنف الدولة السامانية، وياشر العمل السياسي منحازاً لقوى المعارضة، الأمر الذي أفضى إلى سجنه. وبعد تحريره هجر البلاد ملتحقاً ببلاط البويهيين، برغم كونهم من الشيعة الزيدية، وتقلد بعض المناصب العليا، ومنها الوزارة.

وتشي كتاباته بتعاطفه مع الطبقة الدنيا، برغم وضعيته الأرستقراطية. بل عبر عن هذا التعاطف عملياً، حيث كان يعالج مرضاهم بالمجان ويعلم أبناءهم الحرف اليدوية.

ونظراً لما اشتهر به السلاطين البويهيون من العدل والإصلاح، لم ينتقد - فيما كتب - الأوضاع القائمة، وإن تحامل على الأرستقراطية الإقطاعية، والبورجوازية التجارية الجشعة. ولا غرو، فقد اعترف الباحثون بنزعة الإنسانية المرفهة، واعتبروه فليسوفاً تنويرياً، شأنه شأن جماعة إخوان الصفا.

ويبدو أنه لم يستطع الإفصاح عن آرائه السياسية صراحة فلجأ إلى الرمز حتى عرفت فلسفته بالغموض والتناقض أحياناً. على أننا نؤكد على رفضه الأسلوب الثوري من أجل التغيير، وميله إلى طريق إصلاح أحوال الراعي والرعية عن طريق التربية والتنوير<sup>(٨١)</sup>.

أما عن الفكر السياسي عند ابن حزم الأندلسي، فهو أكثر وضوحاً، سواء في كتاباته الفقهية أو التاريخية. ويرجع ذلك إلى

تدهور الأحوال في الأندلس على كل الأصعدة بعد سقوط الخلافة الأموية، وقيام دويلات ملوك الطوائف. لذلك تبني مشروعاً نهضوياً في الإصلاح السياسي والاقتصادي والاجتماعي، فضلاً عن تجديد الفقه.

بخصوص السياسة، استهدف إعادة تحقيق وحدة الأندلس بإحياء الخلافة الأموية. كما توجهت جهوده - الفكرية والعملية - لإصلاح أحوال الراعي والرعية.

وعلى الصعيد الاقتصادي، ندد بالنظام الإقطاعي السائد، وأفتى بأن ملكية الأرض لمن يفلحها، بل طرح أفكاراً تشي بأبعاد اشتراكية. هذا فضلاً عن معارضة الشطط الجبائي والفساد الاجتماعي والأخلاقي.

وفي مجال تجديد الفقه، طور المذهب الظاهري وأعاد تأسيسه على "الدليل" و"البرهان".

لكن جهوده اصطدمت بواقع جارف التيار، الأمر الذي أحبط مشروعه وأعياه نفسياً<sup>(٨٢)</sup>.

أما ابن باجه، فكان فليسوفا عقلياً، لكن مال إلى التصوف نتيجة أزمة نفسية ألمت به نتيجة تردي أحوال عصره. لذلك كانت فلسفته تستهدف "الخلاص الفردي" بعد يأسه من إصلاح الأوضاع القائمة. لذلك أخطأ من ذهب إلى تأييده السلطة المرابطية؛ إذ تعرض للاضطهاد خصوصاً من لدن فقهاء المتزمتين والمبررين سياسات الحكام. كما أثر

العزلة والاعتكاف بداره بعد أن أحرق كتبه نظراً لتشاؤمه خصوصاً بعد إخفاق ثورات قوى المعارضة<sup>(٨٣)</sup>.

وإذ شاركه ابن طفيل في فلسفة "الرفض" فقد عبر عن موقفه السياسي عن طريق الرمز في قصته "حي بن يقظان". وقد أخطأ من اتهم موقفه بالرجعية، فحسبه التنديد بموقف الغزالي "السلطوي" كذا رفضه "الثيوقراطية" إلى حد اتهامه من قبل أحد الدارسين بأنه كان "متطرفاً".

وتشي القصة بانحيازه للعوام، برغم خدمته في بلاط بعض سلاطين الموحدين. كذا تأويله بعض آيات القرآن الكريم الخاصة بالحكم تأويلاً مغايراً لمفهوم الفقهاء. بل إن جماع فلسفته تنهض على وجود أبعاد اجتماعية وانتقادات سياسية للنظام القائم الذي ادعى سلاطينه "المهدوية" في البداية ثم تنكروا لها وتحولوا إلى المذهب المالكي المحافظ<sup>(٨٤)</sup>.

أما ابن رشد، فبرغم معاشته الظروف نفسها، إلا أن فلسفته العامة تغلب العقل على النقل. كما يحوى فقهه ما يشي بتبنيه مبدأ العدالة الاجتماعية.

وعموماً حاول تحرير الشريعة من "الجهالات" السائدة عن طريق الحكمة، كما هو حال إخوان الصفا. وعبر انتقاده سائر المذاهب السائدة عن رفض فكرها السياسي السلطوي. كما عبر فقهه النقدي عن تعرية فقهاء السلطة.

أما عن مشروعه الإصلاحية؛ فقد استهدف إصلاح المجتمع أولاً؛ إذ نعى على حكام عصره ما تردوا فيه من مفاصد. كما أدان الرعية لالتزامها الصمت والخنوع. وندد بالفلاسفة المنعزلين عن هموم المجتمع. كما حمل على الإقطاع، ونادى بتحرير المرأة والرفيق من إيسار العبودية. وانتقد التصوف المتواكل، كما انتقد الغزالي لتبريره مظالم الحكام.

وعلى الصعيد السياسي، رفض الاعتراف بمشروعية النظم المتغلبة، وندد بالنعرات العصبية والنزعات العرقية والنزاعات الطائفية. وعندنا أنه تعاطف مع نظرية الشيعة في الإمامة، وإن لم يسفر عن ذلك صراحة<sup>(٨٥)</sup>.

أما ابن تومرت، فكان مفكراً وسياسياً في آن، فعلى المستوى الفكري قدم إيديولوجية وحدوية تجمع بين سائر المذاهب الكلامية والسياسية والفقهية. وعلى الصعيد السياسي، اتخذ من هذه الإيديولوجيا قاعدة لتأسيس دولة الموحدين التي نجحت بالفعل في تحقيق وحدة الغرب الإسلامي.

ولا غرو، فقد اعتبره بعض الدارسين رائد "ثورة ثقافية" فضلاً عن كونه سياسياً من طراز فريد، فيما نرى. ولم تقف طموحاته عند حد، إذ تطلع لإعادة توحيد "دار الإسلام" برمتها<sup>(٨٦)</sup>.

خلاصة القول؛ أن الفكر السياسي السني عكس رؤية واحدة قوامها ترسيخ مفهوم "الخلافة الثيوقراطية". وإن وجدت بعض

الاستثناءات؛ فهي تمس الفروع، لا الأصول. وترجع في المحل الأول إلى اختلاف المعطيات التاريخية في الزمان والمكان. من هنا، نرى أن الحاجة ماسة لمحاولة استقراء تاريخ الخلافة النيقراطية وما ترتب على فشلها من قيام نظم متغلبة ومغايرة، لتبيان الفروق النوعية بين الفكر السياسي والواقع التاريخي. أو بالأحرى تتبع حركة الجدل بين الفكر والواقع، وهو ما سنعالجه مفصلاً في المبحث التالي.

\*\*\*\*\*



### المصادر والتوثيق

- (١) أنظر: محمود إسماعيل: سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، طور الازدهار، مجلد ٣، ص ٧٨، القاهرة ٢٠٠٠م.
- (٢) جولد تسيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام، الترجمة العربية، ص ١١٦، القاهرة ١٩٥٩.
- (٣) أنظر: سعيد بنسعيد العلوي: الخطاب الأشعري، ص ٨١، بيروت ١٩٨١.
- (٤) حسين مروة: النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، ج ١، ص ٨٦٢، بيروت ١٩٨١.
- (٥) سعيد بنسعيد: المرجع السابق، ص ٦٠.
- (٦) أنظر: الأشعري: الإبانة عن أصول الديانة، ص ١٧، بيروت ١٩٨٥.
- (٧) آدم متيز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج ١، ص ٣٥٩، القاهرة ١٩٥٧.
- (٨) محمود إسماعيل: المرجع السابق، ص ٨٥ وما بعدها.
- (٩) الأشعري: المرجع السابق، ص ١٤٥.
- (١٠) نفسه، ص ١٤٦.
- (١١) نفسه، ص ١٤٧.
- (١٢) نفسه، ص ١٤٩.
- (١٣) نفس المصدر والصفحة.
- (١٤) الغزالي: الاقتصاد في الاعتقاد، ص ١٠٥، القاهرة ١٣٢٠هـ.
- (١٥) نفسه، ص ١٠٦، ١٠٥.
- (١٦) الغزالي: التبر المسبوك في نصيحة الملوك، ص ٤١، ٤٠، القاهرة ١٣١٧هـ.
- (١٧) الغزالي: الاقتصاد في الاعتقاد، ص ١٠٦.

- (١٨) الغزالي: التبر المسبوك، ص٦٢.
- (١٩) أنظر: علي عبد المعطي وطه شرف: خصائص الفكر السياسي في الإسلام، ص٤٠٨، الإسكندرية ١٩٧٠.
- (٢٠) أنظر: سعيد بن سعيد: المرجع السابق، ص٢٦٦.
- (٢١) الغزالي: إحياء علوم الدين، ج١، ص١٨، بيروت، د.ت.
- (٢٢) Grunebaum: Medieval Islam, P. 68, Chicago, 1940.
- (٢٣) الغزالي: التبر المسبوك، ص٦٢.
- (٢٤) رضوان السيد: الأمة والجماعة والسلطة، ص١٩٧، بيروت ١٩٨٤.
- (٢٥) أنظر: علي عبد المعطي وطه شرف: المرجع السابق، ص٣٦٥.
- (٢٦) Barthold: Turkestan down to the mongol invasion, P.373, london, 1968.
- (٢٧) ابن تيمية: السياسة الشرعية وإصلاح الراعي والرعية، ص١٥٧، ١٥٨، القاهرة ١٩٥٥.
- (٢٨) نفسه، ص١٦٠.
- (٢٩) Laosut: Essai sur le doctrine et Politique du Ibn-taymiya, P.31, le Caire, 1939.
- (٣٠) النسفي: التمهيد في أصول الدين، ص١٠٦، القاهرة ١٩٨٧.
- (٣١) نفسه، ص١٠٨.
- (٣٢) نفسه، ص١٠٩.
- (٣٣) نفسه، ص١١١.
- (٣٤) نفسه، ص١١٢.
- (٣٥) نفسه، ص١١٣.
- (٣٦) ابن خلدون: المقدمة، ج٢، ص٦٨٨، القاهرة ١٩٦٠.

- (٣٧) أنظر: صلاح الدين رسلان : السياسة والاقتصاد عند ابن خلدون، ص ٢٠، القاهرة ١٩٩٠.
- (٣٨) ابن خلدون: المقدمة، ج ٢، ص ٦٩٢ وما بعدها.
- (٣٩) نفسه، ص ٦٣٦.
- (٤٠) نفسه، ص ٦٨٦.
- (٤١) نفسه، ص ٨٨٢.
- (٤٢) نفسه، ص ٧١٨.
- (٤٣) نفسه، ص ٧٠٨.
- (٤٤) نفسه، ص ٦١٥.
- (٤٥) نفسه، ص ٦٤٩.
- (٤٦) نفسه، ص ٦٤٨.
- (٤٧) أنظر: محمود إسماعيل: نهاية أسطورة، الفصل الخاص بأخلاقيات ابن خلدون، القاهرة ٢٠٠٠م.
- (٤٨) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ٣، القاهرة ١٩١٩.
- (٤٩) الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص ١٧، ١٨، بيروت ١٩٧٨.
- (٥٠) سعيد بن سعيد: المرجع السابق، ص ٢٧١.
- (٥١) الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص ٤٣.
- (٥٢) فتحي أبو سيف: الماوردي - عصره وفكره السياسي، ص ٦١، القاهرة ١٩٩٠.
- (٥٣) نفسه، ص ١٣١.
- (٥٤) أبو يعلى الفراء "الأحكام السلطانية"، ص ١٩، كمثال، بيروت ١٩٨٣.
- (٥٥) نفسه، ص ٢٠.
- (٥٦) نفس المصدر والصفحة.
- (٥٧) نفسه، ص ٢٢.

- (٥٨) نفسه، ص ٢٣.
- (٥٩) نفسه، ص ٢٤.
- (٦٠) نفسه، ص ٢٥.
- (٦١) نفسه، ص ٢٧.
- (٦٢) نفسه، ص ٢٨ وما بعدها.
- (٦٣) نفسه، ص ٦٧.
- (٦٤) ابن أبي الربيع: سلوك المالك في تدبير الممالك، ص ٩٩، ١٠٠، القاهرة ١٢٨٦هـ.
- (٦٥) المرادي: الإشارة في تدبير الإدارة، ص ٢٢، ٢٣، الدار البيضاء ١٩٨١.
- (٦٦) نفسه، ص ٥٤.
- (٦٧) نفسه، ص ٧٢.
- (٦٨) نفسه، ص ٨٠.
- (٦٩) نفسه، ص ٩٩.
- (٧٠) نفسه، ص ١٢٧.
- (٧١) محمود إسماعيل: سوسيولوجيا - طور الانهيار، مجلد ٢، ص ٩٠، القاهرة ٢٠٠٠.
- (٧٢) ابن الأزرقي: بدائع السلك في طبائع الملك، ج ١، ص ٤٧، بغداد ١٩٧٧.
- (٧٣) نفسه، ص ١٢٥.
- (٧٤) نفسه، ص ١٢٦.
- (٧٥) على سبيل المثال، أنظر: ابن الأعرج: تحرير السلوك في تدبير الملوك، ص ٣٠ وما بعدها، الإسكندرية، د.ت.
- (٧٦) الأخصاري: أصول الحكم في نظام العالم، ص ١١٣، ١١٤، الكويت ١٩٨٧.

- (٧٧) نفسه، ص ١٢٥.
- (٧٨) نفسه، ص ١١٧، ١١٦.
- (٧٩) نفسه، ص ١٣٣-١٤٨.
- (٨٠) نفسه، ص ١٥١ وما بعدها.
- (٨١) عن مزيد من المعلومات، راجع: محمود إسماعيل: سوسيولوجيا، طور الازدهار، مجلد ٣، ص ١٤٩ وما بعدها.
- (٨٢) عن مزيد من المعلومات، راجع: محمود إسماعيل: إشكالية المنهج في دراسة التراث، ص ١١ وما بعدها، القاهرة ٢٠٠٤.
- (٨٣) عند مزيد من المعلومات، راجع: محمود إسماعيل: التراث وقضايا العصر، ص ١١٧ وما بعدها، القاهرة ٢٠٠٥.
- (٨٤) نفسه، ص ١٢٥ وما بعدها.
- (٨٥) نفسه، ص ١٣٣ وما بعدها.
- (٨٦) نفسه، ص ١٤١ وما بعدها.

\*\*\*\*\*



# المبحث الثالث

الخلافة تاريخياً





لم يخطئ بعض الدارسين المحدثين حين اعتبروا نظام "الخلافة" ليس من أصول الدين، فالإسلام دين وأمة وليس ديناً ودولة؛ كما ذكر المجتهد "جمال البنا" الذي عرضنا لأطروحاته في المبحث الأول من الكتاب. وقد تأثر بها لفيف من الدارسين، فذهب بعضهم إلى أن مفهوم الأمة، فضلاً عن كونه جزءاً من الدين نصت عليه الكثير من الآيات القرآنية؛ فإنه مفهوم "مفتوح" يمكن تحقيقه عملياً في المستقبل<sup>(١)</sup>. ومع ذلك فرغ من مضمونه بعد عصر الراشدين حيث ظهرت النزعات العرقية والشعبوية خلال العصرين الأموي والعباسي ليحل محله مفهوم "الشعب" حتى الوقت الحاضر<sup>(٢)</sup>. والأهم أن هذا التفريغ قضى - تاريخياً - على "الخلافة الشرعية"<sup>(٣)</sup>. وفي ذلك دلالة على التناقض الرئيسي بين الفكر النظري السلطوي وبين التجربة التاريخية<sup>(٤)</sup>. وذهب البعض الآخر<sup>(٥)</sup> إلى أن التجربة التاريخية أثبتت أن "الخلافة طوالت التاريخ الإسلامي تسببت في مآسي وفتن وحروب أساءت إلى المسلمين وضربت عقائدهم". ومع ما ينطوي عليه هذا الحكم من مبالغة - لأن نظام الخلافة كان في الأصل نتيجة معطيات سوسيوسياسية - فقد أصاب القول بأن هذا النظام ليس من صميم الدين الإسلامي<sup>(٦)</sup>. لكنه أخطأ مرة أخرى - حين زعم أن مفهوم الخلافة الدينية اقتبسه أهل السنة من الفكر الشيعي السياسي<sup>(٧)</sup>.

وربما كان ما ذهب إليه باحث<sup>(٨)</sup> ثالث من أن هذا النظام لا يختص بخصائص مميزة تجعل منه "نموذجاً إسلامياً"، أقرب إلى الصواب.

كذا حكمه بأن فقهاء السلطة هم الذين أكسبوا مفهوم الخلافة طابعاً لاهوتياً. ذلك أن النظم القائمة تملك سلطتي السيف والقلم، إذ قامت وحافظت على وجودها عن طريق القوة والغلبة. كما وأن كتابها هم الذين قعدوا ونظروا الأحكام السلطانية، ومن ثم كانت السلطة "سياسية ومعرفية" في أن. أصاب أخيراً في الوقوف على تناقض بين تنظيراتهم وبين الواقع التاريخي<sup>(٩)</sup>. ونضيف إلى ذلك أن علماء الكلام والفلاسفة وكتاب "أدب السياسة" استهدفوا من كتاباتهم الطموح إلى تحقيق نماذج "مثالية" لا مجال لتحقيقها على أرض الواقع.

نشاركه الرأي أيضاً في إثبات الممارسة التاريخية حقيقة كون مصطلحات "الخلافة" و"الملك" و"السلطنة" تتطوي على مدلول موحد<sup>(١٠)</sup>؛ فحواء الاستحواذ على السلطة عن طريق "الغلبة" وما جري تاريخياً من إقرار نظام الحكم في العالم الإسلامي إنما هو تجارب "دول سلطانية" ليس إلا<sup>(١١)</sup>.

على أن هذه الأحكام النظرية الصحيحة لم يقدّم أصحابها ببرهنتها عملياً من خلال استقراء التاريخ الإسلامي. وربما يعود ذلك إلى قصور معرفي يصدد تاريخ طويل زمانياً لشعوب متعددة في رقعة جغرافية شاسعة.

ولكون الدارس مؤرخاً ودارساً للتراث في آن، فلنحاول الاضطلاع بتلك المهمة.

سبق وأوضحنا أن معظم الكتابات النظرية عن "الخلافة" اعتبرت عصر الرسول "ص" والخلفاء الراشدين أنموذجاً مثالياً يقاس عليه. كما وأن السلفيين المحدثين يسعون إلى إحيائه باعتباره -وحده- القادر على إعادة وحدة الأقطار الإسلامية.

على أن الواقع التاريخي يثبت أن تجربة حكومة المدينة كانت قصيرة العمر، حيث استمرت عشر سنوات فقط لم تكتمل خلالها التجربة في نظمها ورسومها، إذ كان الرسول "ص" مشغولاً بالغزوات مع كفار قريش واليهود، فضلاً عن نشر الدعوة في شبه الجزيرة العربية. ولم تكن ثمة مؤسسات إدارية أو مالية أو عسكرية أو قضائية، إذ كان الرسول "ص" يقوم على أمورها بنفسه أو يسند إلى كبار الصحابة بعض المهام.

كما لم يكتمل دستور الدولة وتشريعاتها؛ إذ كان الوحي مازال مستمراً وناسخاً للكثير من الأحكام التي شرعها الرسول "ص"؛ كما هو الحال بالنسبة لسياسة "المؤاخاة" بين المهاجرين والأنصار، والتعامل مع قريش واليهود؛ بل شمل النسخ مسألة "الفئ" وقضية الأسرى الخ<sup>(١٢)</sup>.

لذلك نرى أن تجربة حكومة المدينة ما كان لها أن تتكامل في صورة أنموذج محدد ومميز، بل كان "التجريب" بما ينطوي عليه من تغيير أو تعديل أو تطوير أو تجديد يشكل الآلية الحاكمة للتجربة.

وبعد وفاة الرسول "ص" جرى الخلاف بين الصحابة حول اختيار من يخلفه لأنه لم يوص في الحكم لشخص بعينه، ولا لنظام قاطع، كما لم يحدد القرآن الكريم هذا النظام، اللهم إلا التوصية بتطبيق مبدأ "الشورى". قال تعالى: "وأمرهم شورى بينهم"، وهذا يعني أن المسألة موكولة إلى الأمة، ومن ثم ليست دينية بقدر ما هي دنيوية صرفه.

لذلك كان الاختلاف الذي جرى بين الصحابة في اجتماع "السقيفة" حول اختيار الحاكم خلافا سياسيا صرفا، بما دار حول "الأمر" - أي الحكم حسب النص القرآني - من جدل ومساومة ومناورة جرى حسمها عن طريق "الغلبة"، فيما نرى وذلك برجحان كفة المهاجرين. بل ظهر تأثير العصبية القبلية فيما جري من حرب كلامية بين المهاجرين والأنصار؛ برغم تحريم القرآن لها. إذ روي أن عمر بن الخطاب قال عن خصومه الأنصار الطامحين إلى "الرياسة" يريدون أن يختزلونا من أهلنا ويغصبونا الأمر... فمن ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته، ونحن أولياؤه وعشيرته" (١٣).

وفضلاً عما يشي به هذا القول من العودة إلى عصبية الجاهلية، يستدل منه أيضاً على دنيوية موضوع النزاع وهو "سلطان محمد وإمارته"، الأمر الذي يؤكد على الطابع السياسي للخلاف. وليس أدل على ذلك مما ذكره البعض عن وجود اتفاق ثلاثي مسبق بين أبي بكر وعمر وأبي عبيدة بن الجراح على تداول الحكم بينهم الواحد تلو الآخر، حسب الترتيب السالف الذكر.

لذلك لم تكن الخلافة في عصر الراشدين إلا نظاماً دنيوياً قائماً على "الغلبة"، إذ احتكر المهاجرون من قريش المنصب تعويلاً على حديث مشكوك فيه؛ فحواه "الإمامة في قريش". ومرد هذا الشك إلى كون محتواه يتناقض مع مبادئ الإسلام في رفض العنصرية والدعوة إلى المساواة. كما لا يستقيم مع مضمون حديث نبوي صحيح "لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى".

وعندنا أن مبدأ الشورى جرى انتهاكه حين عين أبو بكر عمر لخلافته بغض النظر عن مكانة عمر وعبقريته في إدارة "دار الإسلام". ونظراً لوفاء أبي عبيدة، فقد أوصى عمر قبل وفاته بعقد مجلس شورى مصغر لاختيار خلفه، ولم يعين علي بن أبي طالب كما عينه هو أبو بكر من قبل، برغم قناعته بصلاحيته. إذ أثر عنه قوله: "والله لو وليها الأجلح لحمل الناس على الجادة".

بدلاً من ذلك اختار عمر ستة من كبار الصحابة - جعل معهم ابنه عبدالله وأوصى بعدم اختياره، وإنما عهد إليه بترجيح اختيار الخليفة إذا تعادل الأعضاء في الاختيار - خمسة منهم من الأثرياء<sup>(١)</sup> ذوي المصالح المشتركة ممن شكلوا ما أسميناه "الأرستقراطية النيقراطية" بينما كان علي بن أبي طالب لا يملك إلا قوت يومه.

لذلك كان اختيار عثمان - بعد مناورة داخل المجلس لا محل لذكرها - معبراً عن بعد طبقي أساسه المصلحة لا الدين. فمن ذا الذي كان يقارب علياً في تدينه وتقفه، لقد جرى تنحيته لا لشيء إلا لعلم

أعضاء المجلس مسبقاً بأن خلافته ستنتال من ثرائهم ووضعيتهم الاجتماعية المتفوقة. لذلك لم يخطئ الطبري<sup>(١٥)</sup> -عمدة المؤرخين- حين ذكر أن اختيار عثمان تم عن طريق الغلبة.

وفي خلافة عثمان وقعت "الفتنة الكبرى" نتيجة خروج سياسته عن جادة الشريعة، وتستهدف إرضاء الأرستقراطية الثيوقراطية صاحبة الفضل في توليه الخلافة، والأرستقراطية الأموية التي كانت تعمل في الخفاء جاهدة لحيازة الخلافة. لذلك اختار ولاته وعماله من أفراد الأرستقراطيتين، كما "حمى الحمى" وخالف سياسة أبي بكر وعمر في توزيع العطاء وفي الموقف من "أرض العنوة"<sup>(١٦)</sup>. واعتبر الخلافة منصبا دينيا حيث قال بأنها "قميص ألبسه الله إياه"؛ ومن ثم فلا يجوز عزله أو تنحيته.

من هنا كانت الثورة على عثمان وقتله ذات بعد اجتماعي طبقي<sup>(١٧)</sup>. لذلك بايع الثوار علي بن أبي طالب وعارضه "العثمانية"، بحيث لم يتحقق مبدأ "الإجماع" الذي اشترطه منظرو السنة لتولي الخلافة. وما يعنينا في هذا الصدد أن اختيار الخلفاء الراشدين الأربعة جرى عن طريق "الغلبة"، وأن السياسة -لا الدين- غلفت هذا الاختيار، إذ تولى كل منهم الحكم بطريقة مغايرة، بحيث لم يتقرر نظام معين ثابت وقار في اختيار الخلفاء. كما كانت سياساتهم غير موحدة إزاء القضايا السياسية والاجتماعية والعسكرية والقضائية.

من هنا، نستطيع الجزم بأن أنموذجاً بعينه لم يتقرر ويترسخ لنظام ثابت في الحكم، كما لم يستكمل النظام الحاكم مؤسساته وتشريعاته إلا في عصور تالية. وإذ يعزى الفضل لعمر بن الخطاب في مجال النظم الإدارية والمالية والقضائية والعسكرية؛ فقد استعار معظمها من التقاليد والنظم الفارسية أو البيزنطية.

بل إنه عدل عن تطبيق بعض أحكام الشريعة المقررة بصدد الحدود وتوزيع الأرض في البلاد المفتوحة<sup>(١٨)</sup>، عامداً إلى "الاجتهاد" الشخصي.

خلاصة القول، أن الخلافة في عصر الراشدين لم تكن إلا تجربة دنيوية في الحكم أبعد ما تكون عن الدين، وأن اختيار الخلفاء جرى عن طريق الغلبة، لا الشورى، وأن سياساتهم لم تجر على سنة واحدة أو نسق ثابت بعينه، وأن نظام الحكم ومؤسساته لم تستكمل إلا في عصور "الملوكيات" التالية. من هنا تسقط دعاوي القائلين بنظام "الخلافة النبوكراطية".

وفي العصر الأموي، تحولت الخلافة إلى ملك وراثي صريح، على الرغم من حرص الأمويين على "البيعة" من قبل "أهل الحل والعقد" - وهم فقهاء السلطة من المرجئة - عن طريق الترغيب والتهديد.

إن لأول مرة ظهرت "ولاية العهد" حيث كان الخلفاء يختارونهم في حياتهم - ليخلفوهم بعد وفاتهم. كما اتبع الخلفاء أحابيل السياسة من خداع وكذب وتلبس وحتى الاغتيال للخصوم<sup>(١٩)</sup>.

وروج الأمويون للحديث المنحول "الإمامة في قریش" واتخذوا من "المرجئة" المبررين لسلطتهم فقهاء ورجال بلاط، واحتكر البيت الأموي بفرعيه السفیاني والمرواني الخلافة، ولم يدخروا وسعا في قهر حركات الخوارج والشيعة والزيبريين وغيرهم ممن لم يعترفوا بخلافتهم.

واتبعوا سياسات ملوكية - متأثرة في الغالب بالنظم البيزنطية - لا أساس لها في الشريعة، خصوصاً إزاء المسألة العقارية والضرائبية. إذ تعاضمت ظاهرة الإقطاعات للخلافة والبيت الأموي وكبار قادة الجيش وفقهاء السلطة. كما فرضوا الكثير من الضرائب غير الشرعية -المغارم- وخالفوا الشريعة في مسألة الجزية، حيث لم يعفوا من أسلم عن دفعها<sup>(٢٠)</sup>.

كما أحيوا السخائم العصبية القبلية والنعرات العنصرية التي حرمها الإسلام؛ الأمر الذي فجر العديد من الثورات الاجتماعية<sup>(٢١)</sup>.

وفي مجال النظم، نهلوا من الموروث البيزنطي تحت ذريعة "الضرورة والمصلحة"<sup>(٢٢)</sup>، وبذل كتاب السلطة جهوداً كبيرة في تعريب الإدارة وإضفاء صفة الإسلام عليها.

لذلك - وغيره كثير - أجمع القدامى والمحدثون على أن الخلافة الأموية لم تكن إلا "هرقلية" عضوضة، وإن حاول فقهاء السلطة تبرير مشروعيّتها بذريعة كونها "اجتهاداً" محموداً.



وخلال العصر العباسي، اكتملت النظم والمؤسسات وأقرت رسوم الخلافة التي ألف فيها المؤرخون مصنفات خاصة، كهلال الصابي صاحب كتاب "رسوم دار الخلافة". لكن جل هذه النظم نقلت عن الفرس الذين شكلوا عصبية الدولة خلال أوائل العصر العباسي الأول<sup>(٢٣)</sup>، حتى قيل أن الخلافة العباسية تحولت إلى "ملكية كسروية"<sup>(٢٤)</sup>. إذ كان الوزراء والكتاب والولاة والعمال وقادة العسكر ورجال القضاء والإدارة من الفرس في الغالب الأعم<sup>(٢٥)</sup>.

أما الخلافة، فقد كانت استبدادية مغلفة بطابع ديني زائف، ولا غرو، فقد أعلن الخليفة المنصور أنه "ظل الله على الأرض". وعول هو ومن جاء بعده على إضفاء الهيبة فأسسوا مؤسسة "البلاط"، وابتدعوا وظائف مستحدثة كالحاجب والسياف... وهلم جرا.

كما أخذوا عن الأمويين نظام "ولاية العهد" الذي كان الصراع بين أفراد البيت العباسي على توليه صراعاً دموياً هدد بسقوط الخلافة أحياناً، كما هو الحال بصدد الصراع بين الأمين والمأمون.

لذلك لم يتوافر شرط "الإجماع" ولا شرط "البيعة" الحقيقية في تولي الخلافة، إذ عارضه الخوارج والشيعة والمعتزلة، فضلاً عن الإمامين مالك وأبي حنيفة اللذين أقرّا بأن البيعة كانت تعقد بالإكراه. كما دارت مساجلات كلامية بين زعماء الشيعة والخلفاء حول مسألة "أحقية" الخلافة ومشروعيتها. وانبرى الأدباء والشعراء والفقهاء يروجون للأطروحتين العباسية أو العلوية، بما ينم عن عدم توافر

شرط الإجماع الذي أطره الفقهاء السنة ونظروا له فيما بعد في كتب الأحكام السلطانية.

ولا غرو، فقد اعترف الخليفة المأمون بعدم مشروعية الحكم العباسي وأسند ولاية العهد إلى أحد العلويين، لكن سخط البيت العباسي أفضى إلى إلغاء قراره واضطراره لاضطهاد العلويين الذين عادوا إلى العمل السياسي السري تمهيدا لإسقاط الخلافة التي لم يعترفوا بمشروعيتها.

كما كان تعصب العباسيين الأوائل للعنصر الفارسي من أسباب تقاوم ظاهرة "الشعبوية"<sup>(٢٦)</sup> وما أسفر عنها من قيام حركات انفصالية تمخضت عن تأسيس دول مستقلة، ارتبط بعضها بالخلافة واعترف بمشروعيتها، ولم تعترف معظمها بهذه المشروعية، بل ادعى زعمائها "الإمامة" وتلقبوا بلقب "أمير المؤمنين"، كما هو حال الدول الخارجية والعلوية في بلاد المغرب. وهذا يعني أن "شرط الإجماع" لم يتحقق لخلفاء العصر العباسي الأول.

وفي العصر العباسي الثاني، تسلط العسكر التركي على مقدرات السلطة، حتى صارت الخلافة إسما ليس إلا. فقد استبد قادة العسكر بالحكم وتدخلوا في تعيين الخلفاء وعزلهم، بل اعتدوا على شخصهم بسمل العين وجذع الأنف وقطع الأذن حتى ينتقي شرط "سلامة الحواس" الذي وضعه الفقهاء، وكثيراً ما قاموا بعزلهم وسجنهم وأحياناً لم يتورعوا عن قتل بعضهم.

ولا أدل على ضعف الخلافة وانتزاع صلاحياتها من تأسيس قادة العسكر نظاماً جديداً يتولى زعيمه سلطات الخلفاء والوزراء في آن. وقد عرف هذا النظام باسم "إمرة الأمراء" ذي الصلاحيات المطلقة في السياسة والحرب والاقتصاد والإدارة. كما عين قادة هذا النظام الكثيرين من مواليهم على إمارة الولايات، كما هو حال مصر الطولونية.

لذلك كان الخلفاء تحت رحمة قادة العسكر، ينفذون أوامرهم ويشبعون نهمهم في طلب المال كيما يظلوا خلفاء إسميين. وفي ذلك أنشد أحد شعراء العصر:-

خليفة في قفص      بين "وصيف" و"بغا"  
يقول ما قال له      كما تقول البيغا.

ووصيف وبغا هذان من زعماء العسكر التركي.

ولما كانت بغداد مركزاً للعناصر العربية والفارسية الموالية للخلافة، فقد أقدم قادة العسكر على نقل العاصمة إلى مدينتهم العسكرية "سامرا" وتحديد إقامة الخلفاء بها لتسهيل مراقبتهم. لذلك -وغيره- لم يعد للخلافة ثم تأثير في إدارة "دار الإسلام"، كما أهدرت رسومها وتقاليدها.

ولعل هذا يفسر تردي الأحوال العامة في الحاضرة والولايات، وقيام ثورات إجتماعية وأخرى عنصرية وثالثة طائفية مذهبية<sup>(٢٧)</sup>.

ولعل هذا يفسر نجاح عناصر فارسية شيعية زيدية في تأسيس دولة في بلاد الديلم لم تجد الخلافة غضاضة في الاستعانة بمؤسسيها لدخول بغداد وتحريرهم من إيسار "العسكرتارية" التركية.

دخل البويهيون بغداد بالفعل، وكان بوسعهم إسقاط الخلافة العباسية وإسناد الحكم إلى أحد العلويين. لكن طموحات سلاطينها كان سبباً للإبقاء على الخلافة السنية الضعيفة التي مالبثوا أن تسلطوا على صلاحياتها، وحالوا دون ممارسة الخلفاء العباسيين أدنى سلطات<sup>(٢٨)</sup>.

كما أقاموا نظام "السلطنة"، وتلقب السلاطين باللقب الفارسي "شاهنشاه" -أي ملك الملوك- ولم يكتفوا بالاستحواذ على سلطة الخلافة فقط، بل أهدروا رسومها ونظمها وأمعنوا في إهانة الخلفاء، وأمروا بنقش أسماء السلاطين على العملة، والخطبة لهم على المنابر، وأن تدق لهم الطبول في المناسبات الرسمية، وكلها رسوم وتقاليد كانت من قبل حكرا على الخلفاء.

وتمخض ضعف الخلافة العباسية عن تشجيع الفاطميين لتأسيس دولتهم في المغرب ثم انتقلوا إلى مصر ومدوا نفوذهم إلى الشرق وشبه جزيرة العرب. بل إن أحد دعائهم خطب على منابر بغداد لمدة عام باسم الخليفة الفاطمي.

كما تشجع عبد الرحمن الناصر أمير الأندلس، فأعلن نفسه خليفة بعد أن كان سابقوه يطلقون على أنفسهم لقب "أبناء الخلفاء".

لذلك تمزقت وحدة الخلافة ليشهد العالم الإسلامي ثلاث خلافات في بغداد والقاهرة وقرطبة، وهو أمر هال المسلمين، فاعتبروا ذلك من "علامات قيام الساعة"؛ خصوصاً وأن فقهاء السنة طالما كتبوا عن وحدة "دار الإسلام" واشتروا لحكمها وجود خليفة واحد، كما أوضحنا في المبحث السابق.

وعلى الرغم من وجود خلافات ثلاث، إلا أن الضعف والانهيار حل بها جميعاً. فالخلافة العباسية ما لبثت أن استعانت بالسلاجقة عام ٤٤٨ هـ الذين لم يتورعوا عن الاستئثار بالسلطة. والخلافة الفاطمية، ما لبث أن استبد بها الوزراء خلال العصر الفاطمي الثاني، الذي عرف لذلك باسم "عصر الوزراء العظام". والخلافة الأموية بالأندلس حل بها الضعف نتيجة استبداد "الحجاب" -أي رؤساء الوزراء- لتسقط بعدهم على يد البربر وتتمزق الأندلس بين "ملوك الطوائف" (٢٩).

أما الخلافة العباسية فقد ظلت أسيرة سلاطين السلاجقة الذين أنزلهم "الغزالي" منزلة الخلفاء، وأضفى على حكمهم مشروعية "ثيوقراطية"، كما أوضحنا في المبحث السابق - وظل الحال على هذا المنوال إبان عصر قوة السلطنة السلجوقية. فلما ضعفت قامت على أنقاضها كيانات سياسية بعضها تركي والبعض الآخر أسسها قادة كانوا في الأصل عبيدا يحترفون الحرب، كما هو حال الخوارزميين في آسيا الوسطى والغزنويين وسلطنة دهلي في الهند (٣٠).

واستعانت الخلافة العباسية بالخوارجيين، لكن الغزو المغولي ما لبث أن وصل بغداد، وسقطت الخلافة العباسية عام ٦٥٦هـ. وفي بلاد المغرب، قامت دولة المرابطين، التي نجحت في توحيد المغرب والأندلس. واعترف الغزالي بمشروعية حكم سلاطينها وأسبغ على مؤسسها لقب "أمير المسلمين". لكنها لم تعمر طويلاً؛ فأسقطها الموحدون وورثوا نفوذها في المغرب والأندلس، وجمعوا بين لقب السلطنة والخلافة.

وفي مصر والشام، قامت دولة المماليك الذين حاولوا إحياء الخلافة العباسية. وبرغم كونهم عبيداً إلا أن الفقهاء السنة الأشاعرة اعترفوا بحكمهم وأكسبوه المشروعية. على أن الخليفة العباسي في القاهرة لم يتمتع بأدنى سلطة أو نفوذ، بل جرد من كافة صلاحيات الخلافة.

ولما قامت الدولة العثمانية، جمعت بين الخلافة والسلطنة؛ حتى أعلن كمال أتاتورك تركيا دولة علمانية، فسقطت الخلافة نهائياً عام ١٩٢٤م.

على أن أحلام إحيائها ظلت تراود زعماء الحركات السلفية، كالحركة الوهابية، والحركة المهدية في السودان، والسنوسية في ليبيا<sup>(٣١)</sup>. لكن سقوط العالم الإسلامي فريسة الاستعمار الغربي حال دون تحقيق ذلك، لتسوده نظم في الغالب الأعم ليبرالية، وأخرى عشائرية وقبلية مغلقة بطابع ديني، حتى أن بعضها - في المغرب - لقب الملوك بلقب "أمير المؤمنين".

كما جرت محاولات في مصر من قبل الأزهر لإحياء الخلافة في شخص الملك فؤاد الأول، ومن بعده ابنه فاروق، كان الفشل مصيرها. ومع ذلك لا تزال بعض الجماعات السلفية -كجماعة الإخوان المسلمين- والجماعات الأصولية المعاصرة تحلم بوحدة العالم الإسلامي في ظل نظام الخلافة. واتخذ بعضها من تجربة حكومة الرسول "ص" وعصر الخلفاء الراشدين "أ نموذجاً" يحتذى، بينما وجد البعض الآخر في النظام العثماني أمونجه الأمثل.

خلاصة القول، أن هذا العرض التاريخي "البانورامي" الموجز أثبت أن كافة النظم المتتالية في العالم الإسلامي كانت نظاماً دنيوية، لا علاقة لها بالدين ألبتة برغم ادعائها الثيوقراطية.

وقبل ذلك؛ أثبت العرض أن تجربة الرسول "ص" في حكومة المدينة لم تتأصل كدولة مؤسسات، وأن حكم الخلفاء الراشدين وما تلاهم حكم دنيوي مؤسس على السياسة، لا الدين، وقاعدته الغلبة والعصبية في التحليل الأخير.

كما أثبت العرض -أخيراً- ذاك البون الشائع بين التصورات الفكرية النظرية، وبين وقائع التاريخ العياني.

وإذا تعلق المبحثان السابقان بمفهوم أهل السنة وتاريخية هذا المفهوم عن الخلافة، فماذا عن فكر قوي المعارضة الخارجية والاعتزالية والشيوعية إزاء مسألة "الإمامة"؟

وهو ما سنحجب عليه في المبحث التالي.

\*\*\*\*\*

## المصادر والتوثيق

- (١) انظر: رضوان السيد: الأمة والجماعة والسلطة، ص ٨٣، بيروت ١٩٨٤.
- (٢) نفسه، ص ١٥٢، ١٤٢.
- (٣) نفسه، ص ١٥٩.
- (٤) نفسه، ص ١٧٥.
- (٥) أنظر: محمد سعيد العشماوي : الإسلام السياسي، ص ١٥٧، القاهرة ١٩٨٧.
- (٦) نفسه، ص ١٥٨.
- (٧) نفسه، ص ١٥٩.
- (٨) أنظر: عبد المجيد الصغير: الفكر الأصولي وإشكالية السلطة العلمية في الإسلام، ص ٨١، بيروت ١٩٩٤.
- (٩) نفسه، ص ١٤٧.
- (١٠) نفسه، ص ٨٢.
- (١١) نفسه، ص ٨٣.
- (١٢) ضياء الدين الرئيس: المرجع السابق، ص ١١٧، ١٠٦.
- (١٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٣، ص ٢٢٠، القاهرة، د.ت.
- (١٤) ابن سعد: الطبقات، ج ٣، ص ١٥٨، ٧٧، القاهرة د.ت.



- (١٥) تاريخ الرسل والملوك، ج ٣، ص ٣٨٨.
- (١٦) عن مزيد من المعلومات، راجع: محمود إسماعيل: سوسيولوجيا، طور التكوين، ص ٥٥، ٥٦.
- (١٧) نظر عثمان إلى الثوار على سياسته المنحازة للأستقراطية باعتبارهم "غوغاء وأهل مياه وأعرابا ونزاع قبائل وعامة". انظر: أدونيس: الثابت والمتحول، ج ١، ص ١٨٢، ١٨٣، بيروت ١٩٧٤.
- (١٨) أبو يوسف: كتاب الخراج، ص ٣٥٨، القاهرة ١٣٧٣هـ.
- (١٩) كان معاوية بن سفيان يدس السم في العسل ويقول: "إن لله جنداً من عسل. انظر: الجهشيارى: الوزراء والكتاب، ص ٢٧، القاهرة ١٩٣٨.
- (٢٠) عن مزيد من المعلومات، راجع: محمود إسماعيل: سوسيولوجيا - طور التكوين، ص ٦٠ وما بعدها.
- (٢١) نفسه، ص ٦٧، ٦٨.
- (٢٢) عبد المجيد الصغير: راجع السابق، ص ٩٤ وما بعدها.
- (٢٣) الجهشيارى: المرجع السابق، ص ٢، ٣.
- (٢٤) عبد الحميد الصغير: المرجع السابق، ص ٩٠ وما بعدها.
- (٢٥) محمود إسماعيل: سوسيولوجيا، طور التكوين، ص ٩٩.
- (٢٦) حسن إبراهيم حسن، علي إبراهيم حسن: النظم الإسلامية، ص ٦٦، القاهرة ١٩٧٠.
- (٢٧) عن مزيد من المعلومات، راجع : محمود إسماعيل: سوسيولوجيا - طور الازدهار، مجلد ١، ص ٦٤ وما بعدها.

- (٢٨) نفسه، ص ١٥٨ ما بعدها.
- (٢٩) عن هذه الأحداث الكبرى، راجع: محمود إسماعيل: سوسيولوجيا، المرجع السابق، ص ١٧٧ وما بعدها.
- (٣٠) نفسه، طور الانهيار، مجلد ١، ص ٩٢ وما بعدها.
- (٣١) عن مزيد من المعلومات، راجع: محمود إسماعيل: الفكر الديني الحديث بين السلفيين والمجديين، القاهرة ٢٠٠٥.

\*\*\*\*\*

# المبحث الرابع

مفهوم الإمامة في فكر المعارضة



المقصود بالمعارضة الفرق السياسية-الدينية التي ظهرت إبان الفتنة الكبرى كالتدريية -الذين صاروا معتزلة فيما بعد- والمرجئة والخوارج والشيعة. إذ أن ما جرى من اختلاف الصحابة حول الخلافة، وما أسفر عنه الخلاف من صراع دموي، جعل المسلمين ينظرون إلى الفتنة باعتبارها من الكبائر. من هنا كان اختلافهم في الرأي حول "مرتكب الكبيرة" سببا لظهور تلك الفرق. من هنا أيضاً كانت الفرق السياسية - دينية، سياسية لأن الخلاف تمحور حول موضوع "الخلافة"، ودينية لأن الخصوم السياسيين حاولوا الانطلاق من القرآن والسنة النبوية لتبرير مواقفهم وآرائهم وذلك بتأويل آيات القرآن الكريم، وانتحال الأحاديث التي عزوها -بالباطل- إلى الرسول "ص".

أما عن "التدريية"، فهم أتباع الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود الذي اعتزل المتصارعين حول الخلافة، نظراً لالتباس القضية واعتبروا الاعتزال من صميم الإيمان ومنجاة من الكفر. كذا اعتبره المتصارعين مسئولين عن أفعالهم، فقال لذلك "بالقدر" عكس القائلين "بالجبر" الذين اعتبروا ما جرى قضاء الله النافذ.

ولما ظهر مذهب المعتزلة عام ١٠٠هـ على يد واصل بن عطاء، أخذاً بهذا الموقف، اعتبر عبد الله بن مسعود رائد الاعتزال. أما المرجئة، فقد توقفوا في الحكم على "مرتكب الكبيرة" لا انطلاقاً من موقف التدريية المستنير، بل حفاظاً على مصالحهم الدنيوية، ومن ثم فقد قالوا بالجبر تبريراً لهذا الموقف.

أما الخوارج؛ فقد كفروا "مرتكب الكبيرة" نظرا لما نجم عن الصراع من سفك الدماء وتعطيل الحدود وتوقف الجهاد. لقد كانوا من أخلص أنصار علي، لكنهم خرجوا عليه لقبوله "التحكيم"، بما يعني التشكيك في بيعته وخلافته، لذلك أطلقوا شعار "لا حكم إلا لله" رفضا لتحكيم البشر في قضية قد حسمت ببيعة علي وتولية الخلافة بالفعل.

أما الشيعة، فهم أنصار علي الذين بقوا في معسكره وشايعوه بعد خروج الخوارج، لذلك وصموا بالكفر كل من نازعه حول الخلافة. وبعد اغتيال علي التفوا حول ابنه الحسن، فلما تنازل عن الخلافة شايعوا الحسين. وبعد استشهادهم تعاضم أمر الشيعة وشرعوا في تأسيس عقائد التشيع.

أما عن مصطلح "الإمامة"، فكان هو السائد عند جميع فرق المعارضة، كبديل عن "الخلافة" مصطلح أهل السنة. ويشي مصطلح الإمامة بمسحة دينية، إذ جرى اشتقاقه من إمامة المسلمين في الصلاة وإكسابه بعدا سياسياً يعني "حكم و الرئاسة". تلك مقدمة -موجزة- عن ظهور فرق المعارضة، ومصطلح الإمامة بسطناها نوطنة لتبيان مفهوم الإمامة من الناحية النظرية عند مفكري تلك الفرق، وهو ما نعرض له بالرصد والدرس.

## (١) المعتزلة

أسس واصل بن عطاء مذهب المعتزلة عام ١٠٠هـ. وقد أشرنا إلى أن أفكارهم الأساسية مستمدة من جماعة "القدرية" التي نسبت إلى عبد الله بن مسعود، فاعتبره المعتزلة لذلك رائد الاعتزال. وقد كتب الكثير حول فكر المعتزلة الذي تبني العقلانية، لكن فكرهم ودورهم السياسي لم يحظ بعد بالدرس والفحص. ويرجع ذلك لافتقارهم إلى شخصية مرموقة، كذا إلى تريثهم الحذر والمستتير إزاء السياسة، فضلاً عن دمجهم نشاطهم السياسي بالشيعية الزيدية. لذلك لم يقدر للمعتزلة تأسيس دول اعتزالية قحة، كسائر فرق المعارضة. على أن ذلك لا يعني صحة ما ذهب إليه بعض الدارسين من أن "آراء المعتزلة السياسية لا تفترق عن آراء أهل السنة والجماعة"<sup>(١)</sup>. وحسبنا أن المصادر السنية تكفر المعتزلة، وتعتبرهم "أهل بدع وضلالة"؛ بل تحدث عنهم الشهرستاني باعتبارهم "مجوس الأمة". وتظهر آراء المعتزلة في السياسة من خلال رؤاهم في "الإلهيات"، باعتبارهم مؤسسي علم الكلام. فأراؤهم في تنزيه الله سبحانه عن الصفات المجسدة، وإعلائهم من قدر الإنسان، حين قالوا بالاختيار، لا الجبر، وقولهم في مرتكب الكبيرة بأنه فاسق، ودعوتهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كل هذه الآراء تتطوي على أبعاد اجتماعية وسياسية واضحة.

ولا غرو، فهم - على الصعيد الاجتماعي - يعبرون عن فكر الطبقة الوسطى من حيث الاستتارة والحض على العدل الاجتماعي، حتى عرفوا باسم "العدلية" أو "أهل العدل والتوحيد".  
أما عن فكرهم السياسي، فهو مستمد أساساً من موقف القدرية المستنير إبان أحداث "الفتنة الكبرى"<sup>(٢)</sup>.

وإذ لم يكفروا مرتكب الكبيرة، بل اعتبروه "فاسقاً"، أي في منزلة بين الكفر والإيمان، فهذا يعني بدهاء أنه لا يصلح لتولي الإمامة. وفي قولهم بأن الإمام لا يشترط في توليته إلا أن يكون عادلاً، ما يعني القول بأن الإمامة حق لكل مسلم بغض النظر عن أصله أو عرقه، وهو ما ذهب إليه الخوارج كما سنوضح فيما بعد<sup>(٣)</sup>. وفي تبنيهم قضية العدل الاجتماعي واشتراط العدالة أساساً لتولي الإمامة، ما يعني عدم الاعتراف بمشروعية خلافة الأمويين. يدعم ذلك أيضاً رفضهم احتكار قریش الإمامة دون بقية عناصر الأمة<sup>(٤)</sup>. كذا رفض فكرة "الجبر" التي أسس عليها الأمويون فكرهم السياسي، إذ قالوا بمسئولية الإنسان عن أفعاله، بما لا يعفي الأمويين من خطيئة الوصول إلى الحكم عن طريق "الغلبة" والأساليب السياسية غير المشروعة<sup>(٥)</sup>.  
لذلك اعتبروا الحكم الأموي "ملكا هرقليا" يجب الثورة عليه وتقويضه.

أما عن رأيهم في "الثورة"، فاشتروا أن تكون تحت راية إمام عادل، وأن يجري الإعداد لها وقيامها في توقيت مناسب لضمان



نجاحها<sup>(١)</sup>. لذلك نظموا دعوة سرية- أثبتتها لأول مرة- فأنفذوا الدعوة إلى الأمصار لنشر الاعتزال والإعداد للثورة، لكن الدعوة فشلت في تأسيس دولة "العدل والتوحيد"<sup>(٧)</sup>. بل نجحوا عن طريق الترشيح والتتوير في تمكين بعض خلفاء بني أمية من العدول عن السياسات الجائزة.

ولما قامت الخلافة العباسية، عارضها المعتزلة وآزروا العلويين في ثوراتهم التي فشلت أيضاً. لكنهم تمكنوا من اكتساب مودة الخليفة المأمون الذي جعل الاعتزال مذهباً رسمياً.

وفي العصر العباسي الثاني، تعرض المعتزلة للاضطهاد، خصوصاً من لدن الفقهاء الأشعرية بعد أن صار المذهب الأشعري هو المذهب الرسمي. لذلك أدمجوا نشاطهم السياسي مع الشيعة الزيدية؛ الذين آزروا الحكم البويهي على حساب الخلافة العباسية. لكنهم تعرضوا للاضطهاد في العصر السلجوقي، فعدلوا عن السياسة ومالوا إلى الزهد والتصوف<sup>(٨)</sup>؛ بل اضطرب بعضهم إلى اعتناق الأشعرية من باب النقية. ومن بقي منهم على مذهبه أخذ برأي الشيعة في الإمامة<sup>(٩)</sup>؛ وإن أثرت قلة منهم إعلان معارضة الخلافة العباسية<sup>(١٠)</sup>، وأنكروا إمامة "الفاقد"<sup>(١٢)</sup>، وطالب القاضي عبد الجبار بتطبيق مبدأ "الشورى" ومحاسبة السلطان الجائر<sup>(١٣)</sup>.

بالمثل عارضوا الشيعة في أفكارهم عن "الوصية" و"العصمة" و"الغيبة" و"الرجعة" و"المهدوية"<sup>(١٤)</sup>.

وإذ أمعنت الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية في اضطهاد المعتزلة، اضطروا الكثيرون منهم إلى الهجرة إلى اليمن وبلاد ما وراء النهر؛ حيث أعلن الزمخشري المعتزلي عن آرائه الاعتزالية في جراحة وجسارة. كما تصدى معتزلة اليمن لمناوئة الحكومات السنية الشافعية<sup>(١٥)</sup>.

## (٢) المرجئة

نشأت فرقة المرجئة إبان أحداث الفتنة الكبرى، شأنها شأن كافة أحزاب المعارضة. إذ عبروا عن موقف سلبي إزاء الصراع حول الخلافة، فلم يؤيدوا أيًا من أطراف الصراع؛ حفاظاً على مصالحهم بالدرجة الأولى. من أجل هذه المصالح أيدوا الأمويين بعد وصولهم إلى الحكم، فأرجأوا الحكم على سياساتهم إلى الله سبحانه، متخذين في ذلك موقفاً انتهازياً. فلما أفل نجم بني أمية وغدا سقوط دولتهم وشيكا، تحولوا إلى حزب ثوري تلقف آراء الفرق الثورية كالمعتزلة والخوارج والشيعة.

وقد عبر فكرهم عن الخلافة عن هذا الموقف الانتهازى. إذ لم يدلوا برأي في مسألة "مرتكب الكبيرة" إبان الفتنة الكبرى، معولين على حديث نبوي يقول: "ستكون فتنة القاعد فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي إليها. ألا فإذا نزلت، فمن كان له إيل فليلق بابل، ومن كان له غنم فليلق بغنمه، ومن كان له أرض فليلق بأرضه".

وهذا يعني تعويلهم على "المصلحة" كمبدأ سياسي انتهازي حاولوا إيجاد تبرير شرعي له في الدين<sup>(١٦)</sup>. ولا غرو؛ فقد وصفهم البعض<sup>(١٧)</sup> بأنهم "أهل الحشوة، وأتباع الملوك، وأعوان من غلب". ولما قامت الخلافة الأموية، برروا شرعيتها عن طريق مبدأ "الجبر"، أي أن هذا القيام حكم من الله سبحانه يجب التسليم به، فالخلافة -في نظرهم- هبة من الله يسبغها على من يشاء<sup>(١٨)</sup>؛ استشهاده بالآية الكريمة "قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء... الخ".

وبرغم جور سياسة بني أمية لم يكفروهم تأسيساً على مبدأ أن "الإيمان تصديق بالقول دون العمل"؛ وأن "ما دون الشرك مغفور، فإذا مات العبد على توحيدة، لا يضيره ما اقترف من الآثام واجترح من السيئات". بل إنهم أقروا بوجوب الخلافة الأموية ودعوا إلى طاعتها تعويلاً على الآية الكريمة "أطيعوا الله ورسوله وأولي الأمر منكم".

لكنهم عدلوا عن هذه الآراء حين ضعفت الدولة الأموية وآل مصيرها إلى الانهيار والسقوط. وتبنوا آراء أحزاب المعارضة الأخرى، فنادوا بوجوب "الشورى" والعمل بالقرآن والسنة، كما ألحوا على مبدأ "الإجماع"؛ بما يشي بعدم مشروعية الحكم الأموي القائم على نظام الوراثة، والذي عارضه الكثيرون فلم يتحقق له شرط الإجماع<sup>(١٩)</sup>.

كما أخذوا برأي الخوارج بعدم احتكار قريش الخلافة "وأحقية كل من كان قائماً بالقرآن والسنة لها"<sup>(٢٠)</sup>. كما جعلوا العمل شرط

الإيمان، وقالوا بمبدأ "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، بما يعني وجوب الثورة على الأمويين شرعاً.

لذلك شبه المرجئة -آنذاك- بالخوارج، فنعنوا بصفة "مرجئة الخوارج".

كما أخذوا عن الشيعة مبدأ "التأويل" الذي يبرر تغير المواقف السياسية، ويكيف موقفهم الجديد. وعن المعتزلة أخذوا مبدأ "الاختيار" بديلاً لقولهم "بالجبر" سابقاً؛ بما يعني مسئولية بني أمية عما اقترفوا من أثام. لذلك عرفوا باسم "معتزلة المرجئة"<sup>(٢١)</sup>.

قصارى القول، أن فكر المرجئة السياسي حول مسألة "الخلافة" لم يكن ثابتاً، إذ تغير مع تغير معطيات الواقع بهدف الحفاظ على المصالح.

### (٣) الخوارج

أخطأ من تصور الخوارج كخارجين على علي بن أبي طالب لإرغامه على قبول التحكيم، ثم محاولة إرغامه على عدم قبول نتائجه. إذ سبق لنا إثبات خطأ هذا الزعم، تأسيساً على كون زعمائهم المسرفين في التدين رفضوا مبدأ التحكيم أصلاً، بما لا يعني التشكيك في مشروعية خلافة علي. لذلك طرحوا شعار "لا حكم إلا لله"، على أساس أن حكم الله قد سبق بتولية علي الخلافة عن طريق "البيعة"، وأن تحكيم البشر أصبح غير ذات موضوع<sup>(٢٢)</sup>.

فلما آلت الخلافة إلى بني أمية، لم يقر الخوارج بمشروعيتها لأنها تمت عن طريق "الغلبة" من ناحية، وتحولت إلى "ملك وراثي" من ناحية أخرى.

وبرغم تشرذم الخوارج إلى عدة فرق، إلا أنها جميعاً تجمع على مبادئ واحدة بصدد موضوع "الإمامة". أولها؛ أنها حق لكل مسلم بغض النظر عن أصله وعرقه، وثانيها، وجوب الثورة على الإمام الظالم واستعراضه بالسيف تطبيقاً لمبدأ "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"<sup>(٢٣)</sup>. لذلك أطلق عليهم نعوت "جهوريو الإسلام" و"بولشفيك الإسلام"، و"ثوريو الإسلام".

تطبيقاً لتلك المبادئ أعلنوا الثورة على الأمويين الذين قمعوا ثوراتهم بالعنف والبطش، فضلاً عن الدهاء والسياسة.

لذلك، اضطر الخوارج إلى تعديل مبادئهم لتتنحى نحو الاعتدال من ناحية، والطابع العملي من أخرى. ولا غرو، فقد اختفت الفرق المتطرفة، وبقيت فرقتا الإباضية والصفورية المعتدلتين. وقد عول الإباضية والصفورية على العمل السري السياسي المنظم لكسب الأنصار والإعداد لثورات ناجحة وطامحة إلى تكوين دول على مذهبهم<sup>(٢٤)</sup>.

أما عن مظاهر الاعتدال في الفكر السياسي الخارجي الجديد، فيكمن في التحلي عن مبدأ تكفير المخالفين تكفير ملة، بل ذهبوا إلى أن كفرهم "كفر نعمة". ولم يكفروا إلا السلطان وأعدائه، وما عداهم جرى

اعتبارهم "أهل توحيد"<sup>(٢٥)</sup>. لكنهم لم يتخلوا عن مبدأ الشورى في اختيار الأئمة، كذا رفض اشتراط العصبيّة الإثنية، وفتح الباب على مصراعيه لكل مسلم قادر على الاضطلاع بمسئوليات الإمامة.

وقد طبق الخوارج هذا المبدأ فيما أقاموا من دول في بلاد المغرب، فدولة بورغواطة الصفريّة تولاها أحد زعامات البربر، ودولة بني مدرارا الصفريّة أيضاً أسس إمامتها عبد سوداني، وبعده آلت إلى أئمة من البربر، ودولة بني رستم الإباضية أسسها وحكمها "أئمة" من أصول فارسية.

إلا أن الواقع العملي أفضى إلى تحول الإمامة الخارجية إلى حكم وراثي تنكر لمبدأ "الشورى"، وحلت فيه العصبيّة القبلية والعنصرية محل تعاليم المذهب. من هنا ظهرت فرق خارجية حاولت تصحيح الوضع، خصوصاً في الدولة الرستمية مثل "النكار" و"السمحية" و"النفاثية"<sup>(٢٦)</sup>، لكن حركاتها باءت بالفشل.

ولما ظهرت الدولة الفاطمية في المغرب عام ٢٩٦هـ، أسقطت دولتي الرستميين والمدرايين. لكن الخوارج -شأنهم شأن الشيعة- واجهوا تلك المعطيات، فعالج فقهم السياسي مسألة الإمامة بروية جديدة، فحواها إقامة "إمامة الدفاع" التي تتلخص مسئوليتها في إعادة الإعداد للثورة، فإذا ما نجحت، قامت "إمامة الظهور". كذا اعترفهم بإمكانية "وجود إمامين في وقت واحد"، إذا ما حال الخصوم دون توحيد الإمامة.

هذا فضلاً عن ظهور أفكار تتحدث عن إلغاء الإمامة أصلاً، إذا ما توفر العدل الاجتماعي<sup>(٢٧)</sup>. وفي ذلك تطوير لفكر الخوارج السياسي نأى عن المذهبية ليتسلح بالسياسة<sup>(٢٨)</sup>؛ وهو أمر أغضب فقهاء المذهب، فاعتبروه من قبيل البدع<sup>(٢٩)</sup>.

لكن التيار العملي الجديد ضرب صفحاً عن موقف الفقهاء الذين يئسوا من إمكانية تصحيح الوضع، معبرين عن استيائهم بالسكوت عن الكتابة في موضوع "الإمامة"، فيما صنفوا من كتب فقهية<sup>(٣٠)</sup>. ونظراً لعجز الخوارج إبان محنتهم عن إعادة دولهم السابقة، فقد عولوا على إبداع نظم جديدة لتسيير أمور الرعية في مجتمعاتهم المنعزلة في جبل نفوسة وجزيرة جربة وصحراء الميزاب. يستوي في ذلك من كانوا إباضية "وهبية" أو معارضيهم من "النكار". ومع ذلك ظل هؤلاء يطمحون إلى إحياء الإمامة حيثما تسنح الفرصة<sup>(٣١)</sup>.

وكبديل عنها أخذ "الوهبية" بنظام "العزابة" الذي ابتكره الفقهاء في القرن الخامس الهجري<sup>(٣٢)</sup>؛ بينما أبدع النكار نظام "الأخيار" توطئة لأحياء الإمامة<sup>(٣٣)</sup>. أما نظام الأخيار فيعزو الرئاسة إلى جماعة تتكون من اثني عشر فقيها يديرون أمور الحياة.

ومال الفكر السياسي عند الإباضية عموماً إلى التطرف مرة أخرى، وذلك بتكفير الخصوم واستباحة أموالهم<sup>(٣٤)</sup>؛ بما ينم عن طبيعة الظروف الصعبة التي عاشها الخوارج في المغرب بعد سقوط دولهم،

والعيش في تجمعات عشائرية منغلقة في الجبال والصحراء وجزيرة جربة.

أما في عمان، فقد تحولت الإمامة فيها إلى ملك وراثي<sup>(٣٥)</sup> أيضاً ولا يزال سكانها يعيشون في شبه عزلة عن جيرانهم إلى الآن. خلاصة القول، أن الفكر الخارجي بصدد "الإمامة"، وإن كان أقرب إلى روح الإسلام من سائر الفرق الأخرى، إلا أنه تغير وتطور وفق معطيات الصيرورة التاريخية.

#### (٤) فرق الشيعة

تعرض الشيعة قديماً وحديثاً لحملات ضارية بالسيف والقلم من قبل خصومهم السنة، نظراً لحكهم الإمامة على أبناء علي وفاطمة من ناحية، ولنجاحهم في تأسيس دول صغرى وكبرى هددت بإسقاط الخلافة السنية أحياناً، من ناحية أخرى.

ويجمع الشيعة عموماً على مبادئ عامة مثل اقتضار الإمامة على آل البيت، ومبدأ الوصية -أي الوراثة- وإضفاء حالة قدسية على الأئمة، والمهدوية. إلا أنها تختلف في مسائل هامشية خاصة بالفروع، دون أن تمس الأصول.

وعندنا أن الشيعة محقين في تبجيل الإمام علي لسابقته وبلائه في خدمة الإسلام، فضلاً عن علمه وفقهه الذي برز فيه عن الصحابة جميعاً.



مصدق ذلك، حفظه لتعاليم الإسلام، خاصة ما يتعلق بالسياسة كما يجب أن تكون. دليلنا في ذلك العهد الذي عهد به إلى واليه على مصر "مالك الأشر" (٣٦) الذي يلخص رؤيته الإسلامية الصحيحة للحكم الإسلامي المثالي.

وهاك رسداً لأهم ما تضمنه العهد من توصيات :

- (١) تحديد مفهوم الأمة على أساس الأخوة في الدين، لا العنصر أو العصبية، مع الاعتراف بمواطنة غير المسلمين وحقوقهم المشروعة.
- (٢) العدل شرط للعمران، والظلم نذير خرابه.
- (٣) الغاية من الحكم مصلحة الرعية، لا الحاكم.
- (٤) الكل سواء، ولا تفرقه في تطبيق شرع الله.
- (٥) الحض على الشورى الموكولة إلى أهل الورع والحكمة والاستقامة.
- (٦) احترام كافة فئات المجتمع من منطلق تقديس قيمة العمل.
- (٧) الاهتمام بالجند وصرف أعطياتهم حسب أحكام الشرع، دون تمييز أو تفضيل.
- (٨) اختيار الولاة والعمال والقضاة من أهل التقى.
- (٩) تطبيق أحكام الشريعة في فرض الجبايات، مع مراعاة أحوال طوائف المنتجين من فلاحين ومهنيين وتجار باعتبارهم صانعي العمران "والعمران محتمل ما حملته،

وإنما يوتي خراب الأرض من إعواز أهلها".

(١٠) الحاكم مسئول عن "ولاية" المستضعفين والعوام الذين لم يقرر الحكم إلا لرعايتهم. يقول الإمام علي: "الله الله في الطبقة السفلي من الذين لا حيلة لهم، والمساكين المحتاجين، وأهل البؤس والزمني... احفظ الله ما استحفظك من حقه فيهم".

ولا غرابة أن يصبح فقه علي وعدله نبراساً للأئمة العلويين من بعده.

برغم افتراق الشيعة إلى فرق شتى، يجمعها قاسم مشترك في مبادئ اختصاص آل البيت بالإمامة، والوصية، والتقية، والمهدوية، وكلها مرتبطة برأيهم في الإمامة.

على أن ما تعرض له الشيعة من إحن ومحن، أدت إلى تطوير بعض الفرق لفكرها السياسي. فالزيدية مثلاً أقروا "إمامة المفضول مع وجود الأفضل" (٣٧)، بما يعني الاعتراف بإمامة أبي بكر وعمر، على عكس "الرافضة"، كما حادوا عن مبدأ "التقية" وأصروا على ظهور الإمام، في بعض الأحيان (٣٨)، ولم يشترطوا توريث الإمامة (٣٩).

والكيسانية قالوا بإمامة نسل محمد بن الحنفية، بما يعد خروجاً على مبدأ أن تكون الإمامة لنسل علي من السيدة فاطمة الزهراء. أما الشيعة الإمامية الإثنا عشرية، فقد شاركوا الإسماعيلية في مبدأ المهدوية، مع اختلافهم حول شخص "المهدي المنتظر" (٤٠).

وحين عارك الشيعة عموماً ظروفًا صعبة، مالت أفكارهم السياسية إلى الاعتدال، وتأثرت بمبادئ الاعتزال<sup>(٤١)</sup>، ومالت نحو السياسة على حساب الدين، وراجعت أفكارها السابقة، فأعادت صياغتها حسبما تقتضي الحال.

وعندما تمكن الزيدية من تأسيس السلطنة البويهية، والإسماعيلية من تأسيس الدولة الفاطمية عادت معتقداتها إلى أصولها الأولى، فازدادت تطرفاً<sup>(٤٢)</sup>. فقالت الزيدية بأنه لا يستحق الإمامة إلا الأفضل، ولم يعترفوا بمشروعية حكم العباسيين ولا الفاطميين<sup>(٤٣)</sup>. وأضفى الفاطميون على الإمام صفات أشبه بالتقديس. كما اعتبر الإثنا عشرية الإمامة حقاً إلهياً<sup>(٤٤)</sup>، فيما عرف باسم "الإمامة الروحية".

ولما تفاقمت أحوال الشيعة بعد سقوط الدولة البويهية وضعف الدولة الفاطمية واضطهاد العباسيين للأئمة الإثنا عشرية، تعدلت بعض عقائد مذاهبهم متخذة طابعاً عملياً. مثال ذلك، تجويز الإثنا عشرية "ولاية" بعض خواص الإمام واكتساب سلطته أثناء "غيبته"<sup>(٤٥)</sup>.

كما جرى وفاق بين التشيع الإثنى عشري والتصوف، على أساسه قامت دولة العلويين النصيرية بالشام<sup>(٤٦)</sup>. كما مال الفكر السياسي الإسماعيلي إلى النفلس متأثراً بالأفلاطونية المحدثة. ونتيجة انشقاق المذهب الإسماعيلي إلى "نزارية" و"مستعلية"، مال النزارية إلى التطرف واعتمدوا أسلوب الاغتيال السياسي. كما ظهرت فرقة الدروز التي تأثر فكرها السياسي بمعطيات عقيدة سابقة<sup>(٤٧)</sup>.

ولما دخل الفكر الإسلامي طور الانحطاط، ترك بصماته على الفكر السياسي الشيعي. فالمذهب الإثنا عشري غشيته الخرافات والشعوذة. والتشيع الزيدي غلبت عليه أفكار المعتزلة والتشيع الإسماعيلي اختلط بأفكار متهرطة.

وفي العصر الحديث لم يبق إلا التشيع الإثنا عشري كقوة لها وزنها؛ فنظر له فقهاء المذهب وأحيوا أصوله الأولى<sup>(٤٨)</sup> لتبيان أحقية البيت العلوي في الإمامة، ودحض مقولات أهل السنة حين جعلوا نظرية الاستخلاف حكراً على الأئمة الإثنا عشرية<sup>(٤٩)</sup>.

وبعد قيام الثورة الإيرانية، عاد الخميني لفكرة "ولاية الفقيه" رافضاً مقولة التقية، وإن لم يسبغ على الوالي صفات الأئمة<sup>(٥٠)</sup>، وإن أناطه بسلطاتهم وصلاحياتهم، فيما أطلق عليه "عموم الولاية"<sup>(٥١)</sup>. أما بقايا أتباع المذهب الإسماعيلي -كالبهرة- فبرغم اعتقادهم بتعاليم المذهب في السياسة، إلا أنهم جوزوا مشروعية النظم الأخرى ربما من باب التقية<sup>(٥٢)</sup>.

خلاصة القول، أن قضية الإمامة في الفكر الشيعي بعامه تعد من أصول الدين، أو بالأحرى تكتسب مسحة "ثيوقراطية". ومع ذلك، أبدع فقهاء المذهب صيغاً مستحدثة تحت ضغوط ظروف تاريخية صعبة. لذلك أعطوها مشروعية مؤقتة، ريثما يظهر "المهدي المنتظر".

وإذا كان الموقف من الإمامة هكذا؛ حسب الفقه والفرق، فقد أسسهم فلاسفة الشيعة -شأنهم شأن نظرائهم السنة- في إثراء الفكر السياسي الشيعي عن طريق تقديم صيغ مثالية "طوبوية" بصدد مسألة الإمامة.

ونكتفي بصدد ذلك بعرض فلسفة الفارابي العملية المعبرة عن موقفه من مسألة الإمامة، كأنموذج دال على مثالية التصور.

معلوم أن الفارابي (ت ٣٣٩هـ) ولد في "فاراب" بإقليم ما وراء النهر. حصل ثقافة عصره المزدهرة في العلوم الدينية والدنيوية، وبرع في الفلسفة العامة؛ حيث تأثر بنسقه الفلسفي سائر من جاء بعده من فلاسفة الإسلام. أما عن فلسفته السياسية والاجتماعية، فقد فصلها في كتابيه "السياسة المدنية" و"آراء أهل المدينة الفاضلة".

وقد سبق لنا دراسة فلسفته العامة والسياسية في مؤلف سابق نحيل إليه، تحاشياً للاجترار والتكرار<sup>(٥٣)</sup>. ونكتفي - في هذا المقام - بتبيان تصوره المثالي عن الإمامة، باعتباره شيعياً إسماعيلياً في البداية، وإثنا عشرياً بعد ذلك.

وبغض النظر عن تأثره في تصوره بآراء أفلاطون أو أرسطو؛ فلا مشاحة أن قوام فكره يرجع إلى معاركته واقع عصره الحافل بالصراعات السياسية والمذهبية، فضلاً عن الكساد الاقتصادي والانحلال الاجتماعي.

كما تأثر كذلك بخبرته السياسية، حيث عرك السياسة منذ بفاعته في بلاد ما وراء النهر وحكم عليه بالسجن. ثم انتقل إلى بغداد وغيرها واستقر به المقام في بلاط "بني حمدان" الإثنا عشرية. لذلك كانت فلسفته العملية بالغة الدلالة على طموحاته السياسية الممثلة في إصلاح واقع العالم الإسلامي.

وقد أخطأ بعض الدارسين حين ذهبوا إلى أن مفهومه عن "الإمامة" كان تكريسا للسلطة الثيوقراطية<sup>(٥٤)</sup>. وإذا جاز الأخذ بهذا القول، فهو يتعلق بالإمامة العلوية، لا الخلافة العباسية، كما ذهب أصحاب هذا الرأي.

لقد أعطى الفارابي "الإمام" العلوي المنشود قيمة كبرى، ومنحه صلاحيات مطلقة، باعتباره "يمثل القلب في الجسد"؛ والمنوط بتحقيق قيم العدالة والمساواة.

ولعل ما يؤكد تأثيره بالمفهوم الشيعي عن الإمامة، تأكيده على "عصمة" الإمام الذي جعله موئل الحكمة في علوم الفلسفة والدين والسياسة. كذا إلحاحه على "العدل" باعتباره قيمة مثلى وهدفا وغاية ومقصدا لتأسيس "المدينة الفاضلة"<sup>(٥٥)</sup>.

والمدينة الفاضلة في نظره تشمل "دار الإسلام" برمتها، حيث اعتبر الكيانات السياسية القائمة كيانات "جاهلية" إقطاعية مؤسسة على أصول عنصرية<sup>(٥٦)</sup>. وإذا أقر بوجود أكثر من "رئيس" واحد<sup>(٥٧)</sup>؛ فقد قصد من وراء ذلك الاعتراف بالكيانات الشيعية القائمة كالدولة الفاطمية والدولة الحمدانية والدولة القرظية التي كان مؤسسها "حمدان بن الأشعث" أحد تلامذته.

وقد راهن على اتحاد تلك الكيانات لتشكيل نواة "المدينة الفاضلة" المنشودة التي توحد العالم الإسلامي بأسره.

وإذ لم يتحقق ذلك - الأمر الذي جعل تصويره يوتوبيا- فإن هذا التصور قد أفادت منه جماعات شيعية في المشرق والمغرب، واتخذت منه مثلاً أعلى ناضلت من أجل تحقيقه.

وما يعيننا أن هذا التصور انطوى -بداهة- على رفض الوضع الراهن في عصره، حيث ندد بالنظم الاستبدادية القائمة، ودعا إلى زوالها<sup>(٥٨)</sup>. كما أعلى من قيمة "العقل النظري" المنوط بصياغة "عقل عملي"<sup>(٥٩)</sup> إصلاحي أو ثوري أناطه بمهمة التغيير، كبديل عن "الشوكة" أو "العصبية" التي كانت سبباً لقيام الحكومات السنية المستبدة.

كما زواج الفارابي بين الفلسفة والسياسة والدين والأخلاق كمثل أعلى لوجود حاكم مثالي يتجسد في إمام علوي قادر على تفويض المدن "الجاهلية" و"الضالة" و"الفاسقة" وإقامة "المدينة الفاضلة". لذلك جسد فيه صفات النبي والملك وواضع النواميس والإمام<sup>(٦٠)</sup>.

خلاصة القول، أن مفهوم فرق المعارضة عن "الإمامة" رغم اختلافها وتنوعها، إلا أنها جميعاً توحدت حول غاية واحدة، فحواها تأسيس "دولة مذهبية" كبرى تضم العالم الإسلامي بأسره، وذلك بعد تقويض الخلافة السنية.

والسؤال، إلى أي مدى اتسقت تلك الرؤى أو اختلفت حين دخلت مرحلة الفعل والتطبيق، أو بالأحرى حين دخلت التاريخ؟ ذلك هو موضوع المبحث التالي والأخير.

\*\*\*\*\*

## المصادر والتوثيق

- (١) لإيضاح ذلك، راجع: محمود إسماعيل: الحركات السرية، ص ٩٠.
- (٢) النوبختي: فرق الشيعة، ص ٤٠٥، النجف الأشرف، ١٩٥١.
- (٣) محمود إسماعيل: الحركات السرية، ص ٩٩.
- (٤) محمد عمارة: المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية، ص ١٠٢، بيروت ١٩٧٢.
- (٥) محمود إسماعيل: الحركات السرية، ص ١٠٣.
- (٦) أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج ٣، ص ٨٠، القاهرة ١٩٦٤.
- (٧) محمود إسماعيل: الحركات السرية، ص ١٠٧ وما بعدها.
- (٨) محمود إسماعيل: سوسيولوجيا، طور الازدهار، مجلد ٣، ص ٦٢، ٦٣.
- (٩) أوليري دي لاسي: الفكر العربي ومكانته في التاريخ، الترجمة العربية، ص ١٤٤، القاهرة، د.ت.
- (١٠) حسين مروة: المرجع السابق، ج ١، ص ٩٠.
- (١١) أدونيس: الثابت والمتحول، ج ٢، ص ٥٧، بيروت ١٩٧٧.
- (١٢) محمود إسماعيل: سوسيولوجيا : المرجع السابق، ص ٧١.
- (١٣) نفسه، ص ٧٢.
- (١٤) أدونيس: المرجع السابق، ج ١، ص ٩٠.
- (١٥) محمود إسماعيل: سوسيولوجيا: المرجع السابق، ص ٣١.
- (١٦) جولد تسيهر: المرجع السابق، ص ٢٦.
- (١٧) انظر: النوبختي: المرجع السابق، ص ٤٠٥.



- (١٨) محمود إسماعيل: الحركات السرية في الإسلام، ص ٤٠، بيروت ١٩٩٧.
- (١٩) الطبري: المرجع السابق، ج ٣، ص ٢٣٢.
- (٢٠) أحمد أمين: ضحي الإسلام، ج ٣، ص ٣٣٢.
- (٢١) محمود إسماعيل: الحركات السرية، ص ٤٥.
- (٢٢) أنظر: محمود إسماعيل: قضايا في التاريخ الإسلامي، ص ٣٤ وما بعدها، الدار البيضاء ١٩٨١.
- (٢٣) البغدادي: الفرق بين الفرق، ص ٢٧٣، القاهرة. د.ت، النويجتي: المرجع السابق، ص ٣١.
- (٢٤) عن مزيد من المعلومات، راجع: محمود إسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب، ص ٢٥ وما بعدها، الدار البيضاء ١٩٧٦.
- (٢٥) نفسه، ص ٥١.
- (٢٦) نفسه، ص ١٥٦ وما بعدها.
- (٢٧) نفسه، ص ٢٥٨ وما بعدها.
- (٢٨) علي عبد المعطي وطه شرف: المرجع السابق، ص ١٢٦.
- (٢٩) أنظر: ابن عمر الأزدي: الجامع الصحيح، ص ٢، بيروت. د.ت.
- (٣٠) أنظر: أبو بكر الجناوني: كتاب الوضع، الذي لم يفرد فيه مبحثاً عن الإمامة، القاهرة. د.ت.
- (٣١) محمد عبد العمر: الإباضية النكار، رسالة ماجستير - آداب عين شمس - ص ١٢٧، مخطوطة، القاهرة ٢٠٠٤.
- (٣٢) نفسه، ص ١٣١.

- (٣٣) نفسه، ص ١٣٣.
- (٣٤) نفسه، ص ١٣٤.
- (٣٥) نفسه، ص ١٣٧.
- (٣٦) راجع نص العهد في: ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢٨ وما بعدها.
- (٣٧) الصاحب إسماعيل بن عباد : نصره مذاهب الزيدية، ص ١٨، ١٦٤، بغداد، د.ت.
- (٣٨) جولد تسيهر: المرجع السابق، ص ٢٢٣.
- (٣٩) نفسه، ص ١٨٣.
- (٤٠) محمود إسماعيل: سوسيولوجيا، طور التكوين، ص ١٨٢.
- (٤١) نفسه، ص ١٨٥.
- (٤٢) محمود إسماعيل: سوسيولوجيا، طور الازدهار، مجلد ٣، ص ٢٥.
- (٤٣) الصاحب إسماعيل بن عباد: المرجع السابق، ج ١، ص ٨١.
- (٤٤) حسين مروة: المرجع السابق، ج ١، ص ٦٨٧.
- (٤٥) محمود إسماعيل: فرق الشيعة، ص ١٠١ وما بعدها، القاهرة ١٩٩٦.
- (٤٦) نفسه، ص ١٤٠ وما بعدها.
- (٤٧) نفسه، ص ٦١ وما بعدها.
- (٤٨) أنظر : أمير محمد الكاظمي : مناظرات عقائدية، ص ١٩٥-١٩٩، بيروت ١٩٨٩.
- (٤٩) نفسه، ص ١٩٥-١٩٩.
- (٥٠) الخميني: الحكومة الإسلامية، ص ٤٩، القاهرة ١٩٧٩.

- (٥١) نفسه، ص ٥٢.
- (٥٢) الكرمانى: المصابيح في إثبات الإمامة، ص ١٩ وما بعدها، بيروت ١٩٩٦.
- (٥٣) راجع: محمود إسماعيل: سوسيولوجيا، طور الازدهار، مجلد ٣، ص ١٢٧ وما بعدها.
- (٥٤) انظر: حسين مروة: المرجع السابق، ج ٢، ص ٥٠٦.
- (٥٥) الفارابي: آراء أهل المدينة الفاضلة، ص ١٠٠، القاهرة ١٩٤٨.
- (٥٦) نفسه، ص ١٢٦.
- (٥٧) نفسه، ص ١١١.
- (٥٨) محمد خاتمي: الدين والفكر في فخ الاستبداد، ص ١٤٠، القاهرة ٢٠٠١.
- (٥٩) نفسه، ص ١٣٥.
- (٦٠) الفارابي: المرجع السابق، ص ٩٢.

\*\*\*\*\*



# المبحث الخامس

الإمامة تاريخياً



سبق إيضاح العلاقة الجدلية بين الفكر والواقع التاريخي بصدد موضوع "الخلافة" عند السنة، فأبرزنا تأثير الأوضاع السوسيو-تاريخية في نشأة وتطور مفهومها، كذا ما جرى من تحوير أو تطوير أو إلغاء لبعض مفاهيمها حين جرى تطبيقها عملياً. بالمثل أثبتنا تأثير تلك المفاهيم في حركة التاريخ وصيرورته، إيجاباً أو سلباً. سنعمل على الرؤية ذاتها بصدد مفهوم "الإمامة" عند فرق المعارضة الاعتزالية والإرجائية والخارجية والشيعة.

فسيما يتعلق بالمعتزلة، عرضنا لأفكار الاعتزال الأولى حول الإمامة إبان "الفتنة الكبرى" ممثلة في جماعة "القدرية"، و انتهينا إلى الموقف العملي السياسي لتلك الجماعة من أحداث الصراع؛ إذ اعتزلوا المتخاصمين جميعاً ولم ينحازوا لفريق دون الآخر تعبيراً عن موقف مستنير إزاء قضية "ملتبسة".

فلما تأسس المذهب على يد واصل بن عطاء عام ١٠٠هـ، أي خلال العصر الأموي؛ وقف زعماءه موقف التنديد بالخلافة الأموية، لأنها قامت على "الغلبة" من ناحية، وتكبت طريق العدالة في سياساتها من ناحية أخرى<sup>(١)</sup>.

وكان من الطبيعي أن يعلن المعتزلة الثورة على بني أمية، لكنهم لم يفعلوا لاشتراطهم موافاة الظروف لقيامها، كما ذهبوا في فكرهم السياسي.

لذلك عولوا على أسلوبين للمواجهة، أولهما محاولة ترشيد الخلفاء لتبني سياسة الإصلاح، وثانيهما تكوين تنظيم سري يهدف إلى جمع الأتباع والأنصار إعداداً لقيام ثورة تقضي على النظام القائم وتقيم "دولة العدل والتوحيد".

بخصوص الأسلوب الأول، نجح زعماء المعتزلة بالفعل في ترشيد "ولي العهد" يزيد بن الوليد بن عبد الملك، فاعتنق مبادئ الاعتزال، وأزروه حتى تولى الخلافة ضد خصمه ومنافسه الوليد بن يزيد<sup>(١)</sup>. ولا غرو، فقد عول الخليفة يزيد على الإصلاح محاولاً - ما أمكن - تطبيق الشريعة الإسلامية بعد أن أناط بعض زعامات الاعتزال بتولي بعض الوظائف الهامة<sup>(٢)</sup>.

كما نجح المعتزلة في احتواء "مروان بن محمد" آخر خلفاء بني أمية، فدان بمذهبهم وحاول الإصلاح، لكن الثورة العباسية قضت عليه وأسقطت الخلافة الأموية عام ١٣٢هـ.

أما عن الأسلوب الثاني، وهو العمل السياسي السري، فقد أثبتنا أنه بدء إبان رئاسة واصل بن عطاء مؤسس المذهب، وأنه ألف كتاب "الدعوة" موضحاً فيه كيفيتها وأساليبها وغاياتها. كما اتخذ "البصرة" مركزاً لها، وأنفذ الدعوة إلى سائر الأمصار<sup>(٣)</sup>.

ونجحت الدعوة في نشر مبادئ الاعتزال في بلاد المغرب، لكن المعتزلة أثروا مناصرة العلويين الزيدية لإقامة دولة الأدارسة في المغرب الأقصى عام ١٧٢هـ، إيماناً بعدالة مؤسسها إدريس بن عبد



الله العلوي. ومعلوم أنهم اشترطوا - في فكرهم السياسي عدالة الإمام، وهو شرط توفر في مؤسس الدولة الإدارية. لذلك حظي زعمائهم بمكانة مرموقة في دولته.

وفي المغرب الأوسط، شاركوا في الثورة ضد الإمامة في الدولة الرستمية الإباضية التي تأسست عام ١٦٧هـ<sup>(٥)</sup>؛ بعد أن تحولت الإمامة الشورية إلى "ملك وراثي".

أما عن موقف المعتزلة من الخلافة العباسية، فكان موقف المعارضة لتحول الخلافة إلى نظام الوراثة منذ البداية. لذلك رفض زعيمهم "عمرو بن عبيد" طلب الخليفة المنصور الاستعانة به وبرجاله للمشاركة في تسيير أمور الدولة، ناصحاً إياه باتباع سياسات عادلة. وناصروا العلويين من أجل القضاء على الخلافة، فاضطهدهم الرشيد وأخرج جموعهم من بغداد. ولما قامت ثورات العلويين في العراق والحجاز، شارك فيها المعتزلة نكاية في الخلافة العباسية<sup>(٦)</sup>.

ومع ذلك، حاولوا ترشيد الخلفاء العباسيين، ونجحوا في احتواء الخليفة المأمون الذي أعلن الاعتزال مذهب الدولة الرسمي.

وكان شيوخ المعتزلة -ومن أشهرهم أحمد بن أبي دؤاد الذي تولى الوزارة- من وراء الإصلاحات السياسية والإدارية والاقتصادية، فضلاً عن النهضة العلمية والفكرية التي أنجزت في خلافة المأمون والمعتصم والواثق<sup>(٧)</sup>.

وفي العصر العباسي الثاني عارضوا الخليفة المتوكل، لتعاضد شأن العسكر التركي وتحكمه في شئون الدولة. لذلك استمال أحد شيوخهم -أبو الحسن الأشعري- وأناطه بتنظيم مذهب أهل السنة لدحض علم الكلام المعتزلي.

ولما قامت سلطنة البويهيين عام ٣٣٤هـ؛ اتخذت من المذهب الاعتزالي - الزيدي إيديولوجية السلطنة، وحظي زعماء المعتزلة بتولي المناصب العليا، كالوزارة. وكانوا كذلك من وراء سياسة الإصلاح الشامل والنهضة العلمية التي أنجزها البويهيون<sup>(٨)</sup>.

وبقيام السلطنة السلجوقية السنية المتعصبة عام ٤٤٨هـ؛ جرى اضطهاد المعتزلة، وتصدى "الغزالي" -فقيه السلاجقة- للتدبير بمذهبهم، واعتبرهم "أهل بدع وضلالات".

لذلك هرب المعتزلة إلى الأطراف، فاندوا ببلاد ما وراء النهر والهند واليمن، بل إن بعضهم تخلى عن الاعتزال واعتنق المذهب الأشعري السني من باب "النقية". وفي المشرق، عولوا على نشر مذهبهم بين الأتراك، فضلاً عن جهودهم في نشر الإسلام بين الهندوس، حتى أن الكثير من المدن كان جل سكانها معتزلة، حسب ملاحظة ابن بطوطة<sup>(٩)</sup>.

وفي المغرب، شاعوا الفاطميين وتمكنوا من تأسيس إمارات "جيبية" في المغرب الأقصى، أجهز عليها المرابطون<sup>(١٠)</sup>.

وفي اليمن جرى اندماج مذهب المعتزلة بالمذهب الشيعي الزيدي، ونتج عن ذلك نجاح الزيدية في تأسيس دولة ظلت قائمة حتى أسقطتها ثورة عبد الله السلال في الستينات من القرن الماضي.

خلاصة القول، ان الفكر السياسي المعتزلي ألح على مسألة العدل الاجتماعي، لذلك أزر المعتزلة حركات المعارضة التي تبنت هذا المبدأ، وتمكن بعضها من تأسيس كيانات سياسية في مشرق العالم الإسلامي ومغربه. على أن دولة معتزلية صرفة لم يقدر لها القيام، نظراً لأن جل معتنقي الاعتزال كانوا من النخبة المفكرة التي لم يكن بوسعها الاضطلاع بتلك المهمة.

أما المرجئة، فقد سبق تبيان فكرهم السياسي بصدد مسألة "الإمامة"، وانتهينا إلى أنه عبر عن مصالح دنيوية بالدرجة الأولى. بديهي أن يكون سلوكهم العملي متسقاً مع هذا الفكر "الانتهازي"، فقد كانوا في مواقفهم السياسية "أعوان من غلب".

فإبان أحداث "الفتنة" الكبرى، لم يسفروا عن أي موقف تجاه قوى الصراع، بل تريثوا حتى انجلاء الموقف. ولما انتهى الصراع بتولي معاوية بن أبي سفيان الخلافة أعلنوا تأييده، واعترفوا بمشروعية خلافته، بل نادوا بوجوب طاعته<sup>(١١)</sup>. وظلوا على موقفهم هذا في تأييد من تولى الخلافة بعده من السفينيين والمروانيين. لذلك لم يتعرضوا للاضطهاد الذي حل بفرق المعارضة، وحظوا بالمال والمناصب في

بلاط دمشق. لذلك ساعدهم الأمويون في نشر مذهبهم بالعراق، وتمكنوا بالفعل من كسب المزيد من الأتباع خصوصاً في البصرة<sup>(١٢)</sup>. على أنهم ما لبثوا أن تحولوا من التأييد إلى التنديد بالخلافة الأموية، وذلك حين آل أمرها إلى الضعف، وبدى سقوطها وشيكاً. لذلك غيروا فكرهم حول موضوع الإمامة، متأثرين بفكر المعتزلة والخوارج والشيعة، كما أوضحنا في المبحث السابق. وطفقوا ينشرون المذهب في صيغته الجديدة، فلاقى رواجاً في العراق عموماً والكوفة على وجه خاص. كما انتشر في خراسان وما وراء النهر لما انطوي عليه من ثورية وديموقراطية وأبعاد اجتماعية تتبنى مبدأ المساواة.

وبعد انتشار المذهب أعلنوا الثورة تحت زعامة عبد الرحمن بن الأشعث، والتي استمرت أعواماً أربعة (٨٠-٨٤هـ) وجمعت شمل الطبقات الدنيا من العرب والموالي على السواء. إذ بايعوه "على كتاب الله وسنة نبيه وخلع أئمة الضلال"<sup>(١٣)</sup>. وتمكن الثوار من هزيمة الجيوش الأموية في عدة معارك، فطمحوا إلى إسقاط الخلافة الأموية، رافضين وعود عبد الملك بن مروان وتعهدهاته باتباع سياسة إصلاحية. ومع ذلك فشلت الثورة في النهاية<sup>(١٤)</sup>.

لكنها ما لبثت أن تجددت عام ١٠٠هـ، بزعامة "يزيد بن المهلب" الذي طرح مبادئ العدل والمساواة وخلع طاعة الأمويين والعودة إلى الشورى. لكن الثورة فشلت كسابقتها، لأسباب لا محل لذكرها.

أدى الفشل إلى التعويل على العمل السياسي السري أسلوباً للمعارضة، كما هو حال الخوارج والشيعة. كما نهجوا نهج المعتزلة في ترشيد الخلافة الأموية، فأزروا الخليفة "عمر بن عبد العزيز" في سياسته الإصلاحية.

كما أقنع زعيمهم "الجعد بن درهم" الخليفة "مروان بن محمد" باعتناق الإرجاء في صيغته الثورية، حتى أنه عرف - لذلك - بكنية "مروان الجعدي"<sup>(١٥)</sup>.

وفي نفس الوقت أثرت دعوتهم السرية في خراسان وبلاد ما وراء النهر، الأمر الذي أدى إلى قيامهم بالثورة بزعامه "الحارث بن سريج"، الذي رفع شعارات العدل والمساواة وتطبيق شرع الله<sup>(١٦)</sup>. كما رفض إغراءات الخلافة بالمال والمنصب، داعياً إلى "العمل بكتاب الله وسنة نبيه، واستعمال أهل الخير والفضل"<sup>(١٧)</sup>. لكن مصير الثورة أُل إلى الفشل في النهاية، إذ قضى عليها الأمويون عام ١٢٨هـ. ومع ذلك مهد لنجاح الثورة العباسية عام ١٣٢هـ.

على أن الإرجاء ما لبث أن توارى خلال العصر العباسي، فلم نقف على ما يشير إلى وجوده، اللهم إلا ما ذكر عن الإمام أبي حنيفة بأنه كان يعتنقه سرا.

أما الخوارج، فكان فكرهم حول الإمامة أقرب إلى تعاليم الإسلام من فكر كافة المذاهب الأخرى. أما عن سياساتهم العملية، فنعلم أنهم اشترطوا "توبة" علي بن أبي طالب ورفض قرار التحكيم

ليعودوا إلى معسكره. لكنه اضطر اضطراراً لقتالهم حتى أجهز عليهم في معركة النهروان.

ويخطئ من يتصور أن الخوارج دبّروا ونفذوا مؤامرة اغتيال علي إذ أثبتنا في دراسة<sup>(١٨)</sup> سابقة - براءتهم من تلك التهمة، وأن اغتيال علي دبّره ونفذه أتباع معاوية.

على أن افتقار الخوارج إلى زعامة شهيرة جعلهم ينضوون في حركة عبدالله بن الزبير؛ خصوصاً بعد إعلانه ضرورة العودة إلى الشورى، لكنهم غادروا معسكره حين أيقنوا أنه يدعو لنفسه ليس إلا<sup>(١٩)</sup>. وطفقوا يثيرون على الحكم الأموي بصورة تقتصر إلى الإعداد والتنظيم الأمر الذي أفضى إلى الفشل. لذلك لم يخطئ من وصم "سياستهم بأنها غير سياسية"<sup>(٢٠)</sup>. ومع ذلك نجحوا في تأسيس دولة في عمان مدت نفوذها إلى الحجاز، لكنها لم تعمّر طويلاً.

لذلك عولوا على أسلوب العمل السياسي السري المنظم، فاتخذوا من البصرة مقراً للدعوة، ومنها أنفذوا الدعاة إلى الأمصار. وأحرزت الدعوة نجاحاً في بلاد المغرب، حيث انتشر المذهب الخارجي الإباضي والصفري. وقامت الفرقتان بثورات مظفرة ضد الأمويين ومن بعدهم العباسيين، توجتا بتأسيس دول مستقلة عن الخلافة.

وخلال مرحلة الثورة طبق الخوارج مبادئهم حول "الإمامة"، فعرف الإمام قبل تأسيس الدولة باسم "إمام الدفاع"، ولما نجحت الثورة وأسست الدولة عرف بأنه "إمام الظهور".

كما طبق الخوارج مبدأهم في أحقية كل مسلم قادر بالخلافة، فكان مؤسس دولة برغواطية الصفريّة عام ١٢٧هـ من البربر<sup>(٢١)</sup>؛ وتولى عيسى بن يزيد الأسود -وهو زنجي<sup>(٢٢)</sup>- الإمامة في دولة بني مدرار الصفريّة عام ١٤٠هـ. كما تولى الإمامة في الدولة الرستمية التي قامت عام ١٦٢هـ عبد الرحمن بن رستم الفارسي<sup>(٢٣)</sup>.

على أن فكر الخوارج السياسي ما لبث أن تغير بصدد مسألة الإمامة، إذ تحول من "الشورى" إلى الحكم الوراثي، تحت تأثير النزعات القبلية والنزعات العنصرية. ومع ذلك ناضل شيوخ المذهب من أجل الالتزام بمبادئه "الجمهورية" في اختيار الأئمة. ونجم عن ذلك قيام حركات معارضة ضد أئمة التوريث، من أهمها حركة النكار، وحركة النفائثية، وحركة السمحية، وكلها كانت تستهدف العودة إلى أصول المذهب في اختيار الأئمة، وفقهه في وضع السياسات الإدارية والمالية على نحو خاص<sup>(٢٤)</sup>.

لكن النزعات القبلية والعنصرية حسمت الصراع لصالحها بعد حروب دموية فتت في قوة دول الخوارج وأفضت إلى حال من الفوضى والنشرذم، الأمر الذي جعل هذه الدول لقمة سائغة في فم الفاطميين، فتمكنوا من إسقاط الدولتين المدرارية والرستمية عام ١٩٦هـ. وظلت دولة بورغواطية صامدة - نتيجة عوامل جغرافية واستراتيجية - حتى قضى عليها الموحدون.

وما يعنينا بصدد موضوع الإمامة، أن الإباضية والصفيرية عملوا على استمرار "إمامة الدفاع" سرا، ريثما تتاح الفرصة لإقامة "إمامة الظهور". لكن جهودهم باءت بالفشل، خصوصاً بعد فشل ثوراتهم ضد الفاطميين، ولم يجد أحد زعماء الصفيرية عضاضة في إعلان تبعيته للخلافة العباسية نكاية في الفاطميين<sup>(٢٥)</sup>.

وبقيام دولة المرابطين ومن بعدها دولة الموحدين تضاعل نفوذ الخوارج، فاختفى المذهب الصفيري تماماً. أما الإباضية فقد عاشوا في مناطق معزولة في جبل نفوسة وجزيرة جربة ووادي الميزاب في الصحراء الكبرى. وأفضت هذه الظروف العصبية إلى ابتكار نظام جديد لتسيير شئون تلك الجماعات.

عرف هذا النظام باسم "العزابة" تولت فيه السلطة هيئة استشارية مختارة لتدير شئون الجماعة<sup>(٢٦)</sup>.

. أما الإباضية النكار فقد أبدعوا نظاماً شبيهاً، عرضنا له في المبحث السابق.

أما عن خوارج الشرق، فقد اختفت سائر فرق الخوارج؛ باستثناء الإباضية الذين أسسوا دولة في عمان ظلت صامدة إلى اليوم. وكان حكامها على صلات وثيقة مع إباضية المغرب، فكان الإباضية يلتقون في مواسم الحج لتوثيق عرى الاتصال بين إباضية عمان وإباضية المغرب خصوصاً في المجالين التجاري والثقافي<sup>(٢٧)</sup>.



أما عن تاريخ "الإمامة" عند الشيعة، فمعلوم أن الحسن بن علي بن أبي طالب تنازل عن الخلافة لمعاوية لعدم قدرته على مطاولته. ثم قام أخوه الحسين بالثورة على يزيد بن معاوية ومات شهيداً في كربلاء. لكن استشهاده "التراجيدي" كان بمثابة بداية مرحلة المهادنة مع النظام الأموي، نظراً لقتل رجال آل البيت في كربلاء.

ومع ذلك انتشر التشيع واندلعت ثورات شيعية - دون زعامات علوية - ضد الأمويين، قمعها الأخيرون بوحشية وضراوة. ثم قام المختار بن أبي عبيد الثقفي بثورة تدعو لإمامة محمد بن الحنفية، بما يعني خروج الإمامة عن نسل علي بن أبي طالب من السيدة فاطمة الزهراء، وكان مصيرها الفشل أيضاً. كما فشلت ثورات زيد بن علي بن الحسين - مؤسس الفرقة الزيدية - على بني أمية بالمثل.

لذلك عول الشيعة على الدعوة السرية المنظمة، لكسب المزيد من الأعوان والأنصار، تلك التي ركب العباسيون<sup>(٢٨)</sup> موجتها معلنين أن تكون الإمامة في "الرضا من آل محمد"، بما يعني التفريط من جانب العلويين في حق اعتبروه مقدساً.

وبعد نجاح الدعوة، تحولت إلى ثورة أجهزت على الخلافة الأموية عام ١٣٢هـ. واحتكر العباسيون الخلافة مشككين في مشروعية حق العلويين في توليها. لذلك قامت ثورات علوية قمعها العباسيون بضراوة، الأمر الذي فت في قوة التشيع.

ساعد على ذلك حدوث انقسام في صفوف الشيعة الإمامية، حيث ظهرت الفرقة الإثنا عشرية التي تزعمها جعفر الصادق والفرقة

الإسماعيلية التي قالت بإمامة إسماعيل أخو موسى الكاظم، وليس ابنه جعفر الصادق. وغدا الحزب الشيعي موزعا بين ثلاث فرق أساسية، هي الزيدية، والإثنا عشرية، والإسماعيلية.

أما الزيدية، فقد نجحوا في إقامة دولة في طبرستان بزعامه يحيى بن عبد الله، قضى عليها الخليفة هارون الرشيد في مهبها. كما أسس أخوه إدريس دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى عام ١٧٢هـ بمساعدة المعتزلة، ظلت قائمة حتى قضى عليها الفاطميون عام ٣٦٥هـ<sup>(٢٩)</sup>.

وبقيام السلطنة البويهية في العراق وإيران عام ٣٣٤هـ، اتخذ سلاطينها من المذهب الزيدي إيديولوجية لهم<sup>(٣٠)</sup>؛ دون أن يستندوا حكمها إلى إمام زيدي. لكن السلطنة البويهية أسقطها السلاجقة عام ٤٤٨هـ وحلوا محل البويهيين، وأمعنوا في اضطهاد الشيعة الزيدية. لذلك اعتنق بعضهم المذهب السني، ورحل معظمهم إلى بلاد ما وراء النهر واليمن<sup>(٣١)</sup>. ومن الشواهد على تردي أحوال الزيدية قيام حركة تجديد للمذهب وذلك بتطعيمه بمعتقدات أهل السنة<sup>(٣٢)</sup>. ولم يبق للزيدية وجود في العالم الإسلامي، باستثناء اليمن التي أقاموا فيها إمامة زيدية، قضت عليها ثورة عبد الله السلال في ستينات القرن الماضي.

أما الإثنا عشرية، فقد أناب عنهم الحمدانيون في تأسيس إمارة بالموصل وحلب (٣١٤-٣٩٤هـ) دون أن يترأسها إمام إثنا عشري<sup>(٣٣)</sup>. إذ انصرف الأئمة -نتيجة اضطهاد العباسيين- إلى الاهتمام بتأسيس ما أسموه "الإمامة الروحية" في الظاهر، والإعداد للثورة على

العباسيين في الباطن. لكن الأخيرين فطنوا إلى ذلك، فضيقوا عليهم ولم يتورعوا عن قتل بعضهم وسجن البعض الآخر. لذلك أقام الإثنى عشرية نظام "الولاية" - بعد غيبة الإمام الثاني عشر - لإدارة شئونهم ريثما يرجع الإمام الغائب، إذ أؤكلوا سلطة الإمام إلى فقهاء المذاهب وشيوخه نظراً لمقتضيات الضرورة العملية<sup>(٣٤)</sup>.

بينما عول البعض على اتباع الأسلوب الثوري على "أئمة الجور" - العباسيين - دون جدوى<sup>(٣٥)</sup>.

وقد تدهور المذهب - عقدياً - نتيجة امتزاجه بالتصوف، ومع ذلك نجح الإثنى عشرية المتصوفة في تأسيس الدولة النصيرية بالشام<sup>(٣٦)</sup>. كما خلطه الصفويون بالخرافات والشعوذات، وقامت حركات متطرفة متأثرة "بالمهرسية" - أي الإشراق - مثل حركة "الشيخية" في إيران والحركة "الحروفية" في إيران أيضاً التي أسبغت على زعاماتها صفة الألوهية<sup>(٣٧)</sup>.

ولم يتطهر المذهب ويعود إلى نبعه الأول إلا مع الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ التي أخذ زعيمها "الخميني" بأنموذج "ولاية الفقيه"<sup>(٣٨)</sup>؛ ريثما يعود "الإمام الثاني عشر" من "غيبته".

أما الإسماعيلية، فقد اعتمدوا العمل السري أسلوباً للنشاط السياسي. وقد نجحت الدعوة في بلاد المغرب، حيث قامت الدولة الفاطمية عام ٢٩٧هـ، ثم انتقل مركزها إلى مصر في خلافة المعز.

وتتمكن الفاطميون من نشر نفوذهم في بلاد الشام واليمن، بل إن أحد دعائهم خطب على منابر بغداد لعام كامل باسم الخليفة الفاطمي سنة ٤٤٨هـ.

ويدهي أن يتطور الفكر السياسي الإسماعيلي نتيجة هذا النجاح، فمال إلى الاعتدال والتسامح، حتى سمح لفقهاء المذاهب السنية الأربعة بتولي القضاء، ولأهل الذمة بتولي الوزارة. لذلك أصاب أحد الدارسين<sup>(٣٩)</sup> حين حكم بأن "الفاطميين قدموا صورة مثلى لإسلام نقي".

كما أعطى فلاسفة الإسماعيلية مسألة "الإمامة" اهتماماً خاصاً، إذ برهنوها على أسس عقلانية فلسفية، كما هو شأن النسفي والسجستاني وأبي حاتم الرازي<sup>(٤٠)</sup>.

وانتشر المذهب في بلاد ما وراء النهر والهند واليمن لتنبهه مسألة العدل الاجتماعي الذي وجد أنموذجه في دولة الفرامطة بالبحريين وجنوب العراق، حيث أقاموا نظاماً اقتصادياً ذا سمة اشتراكية، ونظاماً سياسياً يقوم على الشورى<sup>(٤١)</sup>. وهذا ينم عن جهود حمدان بن الأشعث الذي كان من دعاة الإسماعيلية في تطوير الفكر السياسي الإسماعيلي، خصوصاً حول "الإمامة".

وقد أقبل الحرفيون والمهنيون على اعتناق المذهب لإلحاحه على قضية العدالة الاجتماعية<sup>(٤٢)</sup>؛ ولا غرو؛ فقد تبنت "أصناف الحرف" أمر انتشاره<sup>(٤٣)</sup>. كما ساد بين أفراد النخب المفكرة لتعويله على العقلانية بدلاً من التعقيد الباطني الملغز<sup>(٤٤)</sup>.

على أن تصدعا حل بالمذهب الإسماعيلي بعد انقسامه إلى فرقة "المستعلية" وفرقة "النزارية". أما المستعلية فقد مالوا إلى الاعتدال، بينما عول النزارية على التطرف والعنف واتخذوا من "الاغتيال السياسي" أسلوبا في مواجهة الخصوم، ومع ذلك ألح شيوخ المذهب على القضية الاجتماعية، فزاد أتباعه وأنصاره، ووجه ضربات موجعة للعباسيين والسلاجقة<sup>(٤٥)</sup>.

وظل المستعلية يحكمون بالقاهرة حتى سقوط الخلافة الفاطمية. أما النزارية فقد قضى عليهم الغزو المغولي.

آل المذهب الإسماعيلي إلى الضعف في المشرق والمغرب على السواء. ففي الشرق انصرف أتباع المذهب إلى العلم والتجارة، وانصرفوا عن السياسة. كما تعرض الإسماعيلية في الهند لاضطهاد الغزنويين. وبطش بهم الأيوبيون في الشام. وانقرض المذهب من بلاد المغرب تماما. وفي الأندلس، اختلط بالاعتزال والتصوف.

لذلك مال المذهب -تحت تأثير الظروف الصعبة- إلى التطرف والتحجر. كما ظهرت حركات ذات طابع هرطقي تدعي النسبة للمذهب الإسماعيلي. ومال الدروز -في جبل لبنان- إلى الغلو<sup>(٤٦)</sup>. وفي اليمن انقرض المذهب نتيجة اضطهاد الأيوبيين.

خلاصة القول، أن المفهوم النظري عن الإمامة عند سائر فرق المعارضة لم يصمد أمام معطيات الواقع التاريخي، بل تغير وتعديل، واختفى أحيانا لتحل محله نظم مستحدثة فرضتها الضرورة العملية،،

\*\*\*\*\*

## المصادر والتوثيق

- (١) أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج٣، ص١٣٧.
- (٢) الطبري: المرجع السابق، ج٩، ص٤٤.
- (٣) أحمد أمين: المرجع السابق، ص٨٣.
- (٤) عن مزيد من المعلومات؛ راجع: محمود إسماعيل: الحركات السرية، ص١٠٨ وما بعدها.
- (٥) محمود إسماعيل: الخوارج في بلاد الغرب، ص١٦٠، ١٦١.
- (٦) الجهشيار: المرجع السابق، ص١٢٨.
- (٧) محمود إسماعيل: الحركات السرية، ص١١٢، ١١٣.
- (٨) نفسه، ص١١٤.
- (٩) انظر: تحفة النظر في غرائب الأسفار وعجائب الأمصار، ج ١، ص ٤٢، بيروت ١٩٨٥.
- (١٠) محمود إسماعيل: سوسيولوجيا، طور الانهيار، مجلد ٢، ص ٢٢.
- (١١) أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج٣، ص٢٨٠.
- (١٢) محمود إسماعيل: الحركات السرية، ص٤١.
- (١٣) نفسه، ص٤٧.
- (١٤) نفسه، ص٤٨.
- (١٥) نفسه، ص٥١.

- (١٦) أحمد أمين: المرجع السابق، ص ٣٢٩.
- (١٧) الطبري: ج ٧، ص ٣١٠.
- (١٨) انظر: محمود إسماعيل: قضايا في التاريخ الإسلامي، ص ٦٣ وما بعدها، الدار البيضاء ١٩٨١.
- (١٩) محمود إسماعيل: الحركات السرية، ص ١٦.
- (٢٠) فلهوزن: تاريخ الدولة العربية، الترجمة العربية، ص ٣٧٢، القاهرة ١٩٥٨.
- (٢١) محمود إسماعيل: مغربيات، ص ١٠ وما بعدها، فاس ١٩٧٧.
- (٢٢) محمود إسماعيل: الخوارج، ص ١١٦.
- (٢٣) نفسه، ص ١٤٦.
- (٢٤) نفسه، ص ١٦٨.
- (٢٥) نفسه، ص ١٢٩.
- (٢٦) عن مزيد من المعلومات، راجع: بكير بن سعيد: وادي ميزاب في ظل الحضارة الإسلامية، ص ٨٨ وما بعدها، غرداية ١٩٩١.
- (٢٧) عن مزيد من المعلومات؛ راجع: محمود إسماعيل: دراسات في الفكر والتاريخ الإسلامي، ص ١٣١ وما بعدها، القاهرة ١٩٩٤.
- (٢٨) راجع التفصيلات في: محمود إسماعيل: الحركات السرية، ص ٦١ وما بعدها.

- (٢٩) عن دولة الأدراسة؛ راجع: محمود إسماعيل: الأدراسة في المغرب الأقصى، الكويت ١٩٨٩.
- (٣٠) محمود إسماعيل: سوسيولوجيا، طور الازدهار، مجلد ٣، ص ٢٥.
- (٣١) نفسه، ص ٢٧.
- (٣٢) عبد المتعال الصعيدي: المجددون في الإسلام، ص ٣٤٤، ٣٤٥، القاهرة، د.ت.
- (٣٣) حسن محمود، أحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص ٤٤٢ وما بعدها، القاهرة، د.ت.
- (٣٤) محمود إسماعيل: فرق الشيعة، ص ١٠١ وما بعدها.
- (٣٥) جولد تسيهر: المرجع السابق، ص ٢٠٧.
- (٣٦) محمود إسماعيل: فرق الشيعة، ص ١٤٠ وما بعدها.
- (٣٧) عن مزيد من المعلومات ظن راجع المرجع السابق، ص ١٢٣ وما بعدها.
- (٣٨) عن مزيد من المعلومات، راجع: محمود إسماعيل: الفكر الديني في العصر الحديث، القاهرة ٢٠٠٥.
- (٣٩) انظر: Ivanovv: A brief survey of the evolution of Ismailis, P. 17, London, 1952.
- (٤٠) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٤٧١، القاهرة ١٩٨١.



- (٤١) عن مزيد من المعلومات، راجع : محمود إسماعيل: الحركات السرية، ص ١١٧ وما بعدها.
- (٤٢) بطروشوفسكي: الإسلام في إيران، الترجمة العربية، ص ٢٥٨ ، القاهرة ١٩٨٢.
- (٤٣) برنارد لويس: الحشاشون، الترجمة العربية، ص ٢٤٤، ٢٤٥، القاهرة ١٩٦٨.
- (٤٤) مكسيم رودنسون: الإسلام والرأسمالية، الترجمة العربية، ص ١٢٥، بيروت ١٩٦٨.
- (٤٥) بطروشوفسكي: المرجع السابق، ص ٢٤٦.
- (٤٦) محمود إسماعيل: فرق الشيعة، ص ٦١ وما بعدها.

\*\*\*\*\*

## محتوى الكتاب

### مقدمة

المبحث الأول: مفهوم الخلافة في الفكر الديني ٧

المعاصر

المبحث الثاني: الخلافة في الفكر السياسي ٤٥

المبحث الثالث: الخلافة تاريخياً ٧٥

المبحث الرابع: مفهوم الإمامة في فكر المعارضة ٩٥

المبحث الخامس: الإمامة تاريخياً ١٢١